
ميريت
رواية
يوتوبيا
أحمد خالد توفيق

تجليات أدبية

كنت أقول لهم:

ـ "هأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب ..! لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات مالتوس وجمال حمدان ونبوءات أورويل وهـ. ج. ويلز .. لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتنامون ... الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي، وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغني عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيراً حتى لو إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم" !

لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق..

لا يهتمون البتة..

إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه..



ميريت

يوتوبيا

رواية

أحمد خالد توفيق

الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٧٣٩٣

الترقيم الدولي: 977-351-391-2

أحمد خالد توفيق

يوتوبيا

رواية

دار ميريت

القاهرة 2008

يوتوبيا المذكورة هنا موضع تخيلي، وكذلك الشخصيات التـــي تعيش فيها ومن حولها، وإن كان المؤلف يدرك يقينًا أن هذا المكان سيكون موجودًا عما قريب. أي تشابه للمكان والشخصـــيات مع أماكن وشخصيات (في الواقع الحالي) هو محض مصادفة غير مقصودة.

حقًا إنني أعيش في زمن أسود..
الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها..
الجبهة الصافية تفضح الخيانة..
والذي ما زال يضحك..
لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب ..
أي زمن هذا ؟

برتولت بريخت

..سأعيش زمن بعد رحيلك ربما لغد

..لأستمر بك نبتة لا تعرف الخلاص

..لأتلف وتمضي ذكرياتنا الجميلة

..لتعصف بأن لم يعد

... ويبقى الأمل يتلاشى على التمني بك

؟ أنه ليس لي

[illegible]

الجزء الأول

الصياد

-1-

كأنـــه الملصـــق الشـــهير القديم لفيلم الفصيلة .. هذا ما جال بذهني وقتها ..

السبب هو أنني أعلق هذه الصورة فوق فراشي ..

ولـــيام دافو ينظر للسماء – التي لم يعد يفصله عنها شيء – رافعًـــا ذراعيه كأنه في صلاة أخيرة، وقد جثا على ركبتيه بعد ما مزقته الرصاصات .. عندما يصير الموت أكبر من الحياة ذاتها.. عندما يصير الموت ضربًا من الجمال الفني ..

المشهد كان مهيبًا خاصة أنه ليس على شاشة التلفزيون.. كل شيء حقيقي مروع قاس .. و..

وفاتن..

لا تتكرن هذا من فضلك..

رأيـــته وهـــو يـــتوقف وقد أنهكه التعب .. بفقر الدم والجوع اللذين يفتكان به لا يمكنه أن يخوض هذه المطاردة للنهاية.. رأيته ينحنـــي ليلصـــق كفيه بركبتيه طلبًا للهواء، ثم رأيته ينظر لأعلى بيـــنما الهليوكوبتر تدور حوله في تؤدة ودون قلق .. إن معها كل الوقت .. لا يوجد هدف أوضح من رجل مجرد من السلاح وسط رمـــال الصحراء .. رجل أنهكه الركض ...رجل أنهكه الجوع .. رجل أنهكه القنوط ....

لا تقاوم يا أحمق !... ما الذي تمنحك إياه لحظات أخرى من العيش مع الأغيار ؟.. ما الذي لم تحققه في سنواتك العشرين السابقة وتنوي أن تحققه لو ظللت حيًا ؟... فرارك هذا لا يختلف عن فرار الصرصور على جدار مطبخ، أو أميبا تنزلق تحت عدسة مجهر ... صرخة غريزة لا أكثر .. إنه تفاعل التحاشي الذي زرعته الطبيعة فيك، وعليك أن تتعلم كيف تهمله كي تظفر براحة استحققتها...

انطلقت الرشاشات فنظر لأعلى .. نعم .. هذه الطلقات من أجلك أنت ..

ترسم ذلك الخط الطويل على الرمال .. الخط الذي يمر بك أنت ...

وليام دافو في ملصق الفصيلة ...

خطر ببالي إن مخرجي السينما حمقى عندما يظهرون المصاب بالرصاص يسقط على الأرض فورًا .. كلا .. لقد نظر لأعلى وبدا كأنه يريد أن يقول شيئًا ثم سقط على الأرض ووجهه في الرمال ..

شهقت جرمينال رعبًا لكني لمحت في عينيها ذلك البريق .. بريق إثارة لا شك فيها .. صدرها يعلو ويهبط .. وتلامست أصابعنا حيث وقفنا هناك خلف السلك نرمق الهليوكوبتر تنخفض مبعثرة سحب الرمال من حولها، ثم الحارس الأمريكي يثب منها ليتفحص الجثة .. يركلها بطرف حذائه ثم ينحني ليتحسس الشريان السباتي ..

يرفع سبابته لأعلى ويصيح: -" !! Lovely"

ثم يركض نحو الطائرة وفي ثوان يرتفع الوحش الأسطوري بعد ما أنهى مهمة الصيد ... كل هؤلاء الحراس من رجال (المارينز) المتقاعدين ولا أعرف سبب ذلك، لكنهم بالتأكيد لا يفتقرون إلى اللياقة البدنية..

شهقت جرمينال رعبًا..

شهقت جرمينال نشوة...

الموت .. اللعبة العظمى التي لم نجربها بعد .....

أقف أمام المرآة ..

أتأكد من أن شعري حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة .. أصلع على جانبي الرأس والخصلة البنفسجية العالية في المنتصف مثل ديك بري ثائر.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودوو .. لست عابد شيطان .. في الواقع أنا لا أصدق وجود شيء على الإطلاق، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدري ...

الوشم كذلك غريب .. إنه يروق للفتيات هنا .. السروال المصمم بعناية بحيث يظهرك في مظهر أكثر فحولة، وهو قصير يظهر ربلتي الساقين .. أحيانا أمارس الحفاء لكن ليس اليوم .. أعلق القرط الجديد في غضروف أنفي والقرط الآخر في حاجبي.. لن أضع حلية اللسان اليوم .. ثم بصبر أقوم بتلوين أسناني .. اللون الأحمر للنابين والأصفر للقواطع .. الأزرق للضروس ..

هذه الصبغة ممتازة ولا تزول بسهولة .. يقولون إنها غير سامة.. من يبالي بهذا ؟.. ليتها كانت سامة ..

أضع العدسات الملتصقة الجديدة التي تجعل لون العينين أبيض .. تأثير مثير للفتيات أن ترمقهن بعيون مبيضة كأنك الموت .. هذا يقهرهن فعلاً...

أتأكد من أن الجرح على جبيني مفتوح .. أعالج حافته بعناية ليبدو داميا .. إن الجروح مثيرة بلا شك .. ظهرت هذه الموضة منذ عامين وصار لها متخصصون .. المهم أن يبدو الجرح بشعًا قدر الإمكان ويبدو صناعيًا كذلك حتى لا يشمئز من يراه .. هذا فن حقيقي ..

هذا الجرح أجراه لي طبيب إسرائيلي متخصص في هذا الفن.. يقول إنه درسه في نيويورك .. كان اسمه (إيلي)، وكان شابًا ظريفا .. قال لي إن أباه أصيب بجرح مماثل في حرب عام 1973 مع المصريين، وسألني إن كنت أذكر شيئًا عن الموضوع .. قلت له إن لي عمًا توفي في هذه الحرب، لكني لا أعرف التفاصيل ... هذه أمور مر عليها خمسون عامًا ... لا أعرف لماذا – في حقبة ما – كان المصريون يكرهون الإسرائيليين ؟، لكني لا أهتم بفهم هذه الأمور .. ربما ذهبت للحرب لو طلب مني هذا لسبب واحد هو كسر روتين الحياة .. أن تمشي وسط طلقات الرصاص في صحراء تتناثر فيها جثث الموتى !... كم أن هذا رائع ..

* * *

في (يوتوبيا)....
حـيث يتوارى الموت خلف الأسلاك الشائكة، فلا يصير إلا لعبة يحلم بها المراهقون ...
(يوتوبيا)...
ستة عشر عامًا من عمرك وأنت لا تنتمي إلا إلى يوتوبيا .. أنـت مـواطن (يوتـوباوي) ذوبتك الحياة المترفة وذوبك الملل، فصـرت لا تعـرف الأمريكي من المصري من الإسرائيلي ... صـرت لا تعـرف نفسـك من الآخرين .. لولا بقايا الشهوة في عروقك لما عرفت الذكر من الأنثى ...
مـن أنـا ؟.. دعنا من الأسماء .. ما قيمة الأسماء عندما لا تختلف عن أي واحد آخر ؟
قال لي سالم بيه:
ـ"أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."
قلت له إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي.
أنا لم أعد طفلاً.. لقد تجاوزت السادسة عشرة .. قرأت كل كتاب وقع في يدي حتى اكتفيت.. إن الكتب سلعة نادرة هنا لكني وجـدت كنزا منها عند (سالم) بيه رئيس تحرير تلك الجريدة الذي يعـيش على بعد مائتي متر من بيتي . لديه كتب كثيرة جدًا، وقد بدأت القراءة على سبيل التحدي لأن (مراد) لا يقرأ وكذا (لارين). من الجميل أن تفعل شيئًا لا يطيقانه ..

لسبب ما عشقت هذه الطريقة ووجدت فيها عوالم سحرية أنفذ إليها كلما أردت، وكان سالم بيه يرمقني في دهشة كلما زرت مكتبته ويقول:

ـ"صدقني يا بني .. لا شيء في هذه الكتب يهم .. أنا أقتنيها لأنها تجعل منظر المكتب أنيقًا، لكن الحياة هي المعلم الوحيد لك"

لم أكن أرد .. فقط كنت آخذ منه عشرة كتب في المرة، وأناوله بعض شرائط (الليبيدافرو) التي سرقتها من أبي. سالم أرمل لم يتزوج ثانية .. هكذا يمكنني أن أخمن ما ينوي عمله بالليبيدافرو. وبهذا قرأت قبل سن السادسة عشرة معظم ما وجدته من كتب فلسفة ودين وروايات .. لم أحب قط قراءة السياسة ولم أهتم بها وكذلك التاريخ .. قرأت الكثير كذلك على شبكة الإنترنت، ويبدو أنني قرأت أكثر من اللازم لأنني لم أعد أطيق رؤية كتاب آخر .. لهذا السبب أنا أكثر ثقافة من أقراني بلا شك..

في سني الصغيرة نسبيًا هذه كونت قناعة لا بأس بها هي انه لا جديد تحت الشمس ولا يوجد شيء واحد يمكن تعلمه بعد هذا .. هناك خلل اجتماعي أدى إلى ما نحن فيه، لكنه خلل يجب أن يستمر .. كل من يحاول الإصلاح يجازف بأن نفقد كل شيء . هذا وضع شبيه بالمكارثية في الولايات المتحدة، عندما شعر الأمريكان في القرن الماضي أن عليهم أن يقهروا كل نزعة يسارية لأنها تهدد كيانهم ذاته .. هذا ما حكاه لي سالم بيه ..

عاشرت كل فتاة راقت لي، وجربت كل أنواع المخدرات حتى (الفلوجستين) الجديد الوارد من الدانمرك، الذي له رائحة

اللـــيمون .. يقولون إنه باهظ الثمن لكن ما معنى باهظ الثمن ؟.. هذه الكلمة نلوكها بفمنا دون أن نعرف معناها .. ما اعرفه هو أنه يأخذنـــي بعـــيدًا بمجـــرد أن تضـــع قطرة منه على جلد ساعدك، وعندها ترى تلك النيران الفاتنة التي استمد منها اسمه .. تفيق بعد ساعات لتدرك أنك بحاجة للمزيد ..

كنت قد بدأت تجاربي بالماريجوانا ... لا بأس بها .. جربت عقـــار (إكســـتازي) وجربت LSD .. مشكلة هذا الأخير هي أنك بالفعـــل لا تضمن أن تظل حيًا حتى تفيق .. من كل مجموعة لابد مـــن واحـــد لا يـــتعاطاه كي يراقب الآخرين، ويطلقون عليه اسم (حـــارس الـــرحلة) .. عندما تتسلل الأيوفوريا إلى عقولهم يكون الوثب من الشرفة أو إشعال النار في النفس أو التحديق في قرص الشمس حتى العمى أمورًا منطقية جدًا ... هذا مثير لكني لا أحب أن أصير كفيفًا ما تبقى لي من عمر ...

جربت عقاقير كثيرة جدًا .. نبتاعها من الحراس الأمريكيين، ولكـــن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة .. ثمـــة جزء مهم من اللعبة هو التحريم والندرة.. أن تتعاطاها خائفًا .. تتعاطاها قلقًا بصدد الجرعة التالية .. عندما تتاح المخدرات في كل وقت تفقد أية لذة لها ... تصير مملة سوقية ..

لـــم يعـــتد أبـــواي مراقبتي بهذا الصدد ... لا احد يتدخل في حياتـــي على كل حال .. من حقي أن أتعاطى أي شيء بأية كمية وبأي ثمن، وإلا فما كان عليهما أن ينجباني ...

ليست الأبوة عملاً عظيما لهذا الحد .. بوسعي أن أكون أبًا لألف ابن لو أعطيتني ألف امرأة، ولأكونن لك شاكرًا ...

اليوم أخبرت (لارين) أن (سوزان) حبلى ...

لقد صار هذا روتينا في حياتنا .. لا أعرف سبب الخصوبة التي رزقتني بها الطبيعة .. أبي لم ينجب سواي ولا أعتقد أنه كان يقدر على إنجاب آخرين، لكني جئت الكون كارثة حقيقية .. ألمس الفتاة فتأتيني بعد شهر لتقول إن الأعراض زارتها .. ما من فتاة فوق الثانية عشرة هنا لم تجرب هذه الأعراض وتألفها .. والنتيجة واحدة على كل حال .. سوف آخذ من لارين شيكًا وأعطيه للفتاة .. والفتاة سوف تقصد المركز الطبي لتتخلص من هذا الكابوس ... جراحة يوم واحد تنتهي سريعًا . فقط تضطر الفتاة للحياة بلا جنس لمدة شهرين وهذا ممل بحق ...

(سوزان) .. (كاتي)... (مايا)... (جرمينال)... لكني أفضل الأخيرة لسبب لا أدريه .. ليس الحب طبعًا .. مثيرة جنسيًا ؟.. ربما .. لكني لم أعد أعرف إن كانت الفتاة مثيرة أم لا لأنهن يتشابهن في كل شيء..

قالت لي لارين في ضيق:

ـــ"ألا تفعل شيئًا آخر بحياتك سوى النوم مع الفتيات ؟.. لقد صار هذا مملاً..."

قلت وانا أفرد ساقي على المنضدة أمامي:

ـــ"ربما كنت شهوانيًا كالخنازير.. هذا ليس ذنبي.. إنها الهرمونات"

ـــ"ليت الأمر كذلك، لكني بالفعل لا أتصورك تشعر باشتهاء أو رغبة .. أنت تفعل هذا بداعي الملل لا أكثر .."

قلت بذات اللهجة:

ـ"ربما كنت ملولاً .. هذا ليس ذنبي كذلك"

ومـــاذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية ؟.. تنام .. تتعاطـــى المخـــدرات .. تأكل حتى يزهق الطعام أنفاسك .. تقيء حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل ... تمارس الجنس (من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيًا ساديًا).. لو كـــنت تعـــرف طـــريقة أخـــرى يمارس بها المرء حياته فلسوف يسعدني أن تقولها ..

أنا وجدت طريقة .....

أنـــا لم أعد طفلاً كما قلت لك.. (رامي) خاض تجربة الصيد ومعهـــا ذاق الكثيـــر من المرح.. (شادي) فعلها .. (أكمل) جربها ولـــم يســـتطع أن يخفي شيئًا عنا .. لقد عرض علينا التذكار الذي جلـــبه مـــن هناك، ويبدو أنه كان تحت تأثير البانجو، ذلك المخدر الـــرديء الـــذي كانوا يتعاطونه في أوائل القرن .. طبعًا في العام 2020 صار الفلوجستين هو اسم اللعبة ..

قررت أن أجرب بنفسي ..

إنهـــا (يوتوبيا)... حيث يضنيك البحث عن طريقة تزجي بها كل دقيقة من حياتك ....

-2-

أنا أعرف لماذا فعلها (راسم)...

ستة عشر عامًا .. وقرون من الخبرات المتراكمة ..

مثل أباطرة الرومان قد جربتُ كل شيء وعرفتُ كل شيء.. ليس هناك من جديد يثير فضولك أو حماسك في (يوتوبيا) .. لا شيء يتغير .. أحيانًا يخيل لي أننا معتقلون وأن الذين بالخارج هم الأحرار .. يذكرك الأمر بمعسكرات الاعتقال النازية التي تراها في أفلام الحرب ..

(يوتوبيا)... المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت تحوي كل شيء يريدونه ..

يمكنك أن ترى معي معالمها.. البوابات العملاقة .. السلك المكهرب .. دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين .. أحيانًا يحاول أحد الفقراء التسلل للداخل من دون تصريح، فتلاحقه طائرة الهليوكوبتر وتقتله كما حدث في ذلك المشهد الذي لا يفارق خيالي..

بعد هذا منطقة الحدائق .. منطقة المدارس المخصصة لإقناع الآبـــاء أنهم ما زالوا كذلك.. منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مســـجد وكنيسة ومعبد يهودي .. البعض هنا ما زال مصرًا على أن يخاطـــب ذاتًا عليا لا يراها، ولكن جيل الشباب قد تخلص من هـــذه العادة على كل حال .. أعتقد أن سبب تشبث الكبار بذلك هو خشـــيتهم من أن يفقدوا كل شيء في لحظة .. أن يضيع التميز .. أن يجدوا أنفسهم في الخارج . إنهم لم يشعروا بعد بأنهم يستحقون مـــا هم فيه، بينما جيل الأبناء جاء الدنيا معتبرًا أن كل شيء من حقـــه. الكـــبار على كل حال قد كفوا عن نصح أبنائهم بأن يحذوا حذوهم .

هـــناك سبب آخر مهم في رأيي، هو ولع الكبار بأن يجمعوا بـــين طابعـــي الثراء والورع .. الثراء والورع ثنائي محفور كما يـــبدو فـــي عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور. صورة الحاج (عـــبد الســـميع) النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعباءة الواسعة غالية الثمن على كتفيه وهو يوزع المال باليمين والشمال، وعلـــى وجهـــه ابتسامة وقور متئدة. رائحة عطره الثمين الفاغم ومسبحته الذهبية .. يبدو أن هذه الصورة محفورة في أذهان آبائنا فعلاً. أنا قرأت في الأديان قليلاً، وارتبطت فكرة الزهد بالورع في ذهنـــي، دعك من أننا نعرف بعضنا .. كل هذا الورع لن يقنعني بأنهم لا يعاقرون الخمور ويغتصبون نساء الأغيار ورجالهم طيلة الـــوقت .. لقد صنعوا ثرواتهم من لحم الأغيار وأحلامهم وآمالهم

وكبريائهم وصحتهم، لهذا يبدو لي ما يقومون به غريبًا لكنه شأنهم على كل حال.

منطقة المولات .. هنا يمكنك أن تبتاع الفلوجستين بشكل غير رسمي من بعض رجال الأمن .. ثم ترى القصور .. قصر (علوي) بك ملك الحديد .. قصر (عدنان) بك ملك اللحوم .. قصر أبي ملك الدواء.. ثم المطار الداخلي .. هناك مطار طبعًا حتى لا تضطر للخروج .. في الماضي كان يسيطر على قومي هاجس الهرب للمطار لو أن الآخرين بالخارج ثاروا .. رحلة المطار ستكون شاقة ومريعة وخطرة .. سوف يعترض الأغيار طريق السيارات ويمزقون من فيها .. أنا أعرف هذه الأمور لأنني أقرأ كثيرًا .. القصص كثيرة بدءًا بالثورة الفرنسية حينما جاب الرعاع شوارع باريس وهم يعلقون ثديي الأميرة (دي لامبال) على رمحين، وانتهاء بالثورة الإيرانية في سبعينات القرن العشرين؛ عندما وجد مدير (السافاك) – على ما أذكر – سيارته محمولة فوق الأعناق وهو فيها، من ثم لم يجد حلاً إلا أن يدس المسدس في فمه ويضغط الزناد .. رباه !... حتى وأنا أكتب هذه الكلمات شعرت بقشعريرة لذة !... مسدس في فمك .. معدن بارد .. وضغطة تنهي كل شيء !..

خشية من رحلة المطار هذه قرر قومي أن يبنوا مطاراتهم الخاصة داخل مجتمعاتهم .. مع الوقت لم يعد هناك خطر من الثورة، لكن المطارات ظلت في مكانها على سبيل الترف ..

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة .. حتى إفراغ مثانتك في حوض المطبخ يبدو متعقلاً مملاً...

المجلس .. دخان التبغ ينعقد .. المكتب العملاق في بناية الاتحاد، ونظرة الحكمة في عيون الكبار ... دقات الساعة .. كلمات .. كلمات .. سمعتها حتى لم تعد ذات معنى ..

* * *

ـ"نحن أسرة واحدة .. الخ ... لسنا مثل الأغيار ... الخ ...."

للمرة الألف ...

هو ذا (راسم) يتظاهر بالمبالاة .. يمزجها بالخجل والندم .. أتحدى أن تجد عاطفة واحدة سبيلها إلى هذا الوجه الميت المتصلب .. عينان ميتتان تذكرانك بعيون القتلة في ذلك العالم الخارجي عندما تقتنصهم عدسات الكاميرا .. رجل يقتل زوجته وعشيقها ثم يجلس على المقهى .. امرأة تقتل طفلة من أجل قرط لا يساوي أكثر من مائة جنيه .. ثم تظهر الصورة في صفحات الحوادث .. عندها سوف ترى هاتين العينين ..

لكنه كذلك ــ راسم – يتكلم .. الأحمق يتكلم:

ــ"حقًا لا أعرف ما دهاني كي ......"

للمرة المليون ....

يقول الحكيم الأكبر بصوت رنان يروق له شخصيًا من دون شك:

ـ"نحن لا نقحم أي طرف في مشاكلنا .. سوف يتعهد (عزام بك) بدفع ثمن الـ ....الخ .. ابنك هو ابني والعكس .. الخ ...."

و(عزام بك) يتعهد في وقار بدفع ثمن الـ ...... وهو يداعب حبيبات مسبحته الذهبية ...

جلسة عائلية تضم علية القوم في يوتوبيا، فهذا المجتمع قد أفرز قوانينه الخاصة ومحاكمه. هناك شاب قد أخطأ أو فعل ما يوجب حنق الكبار عليه .. الأخطاء هنا هي أن تدمر الملكية الفردية لآخر من يوتوبيا أو تسطو عليها .. (راسم) قد أفرط في الشراب فدمر جزءًا من مول (إليت) الخاص بمصطفى بك .. ربما سرق شيئًا .. لا أحد بحاجة للسرقة، لكنك بحاجة إلى إثارة وتوتر وإثم السرقة .. الكلبتومانيا أو داء الولع بالسرقة هو سبب أكثر الجرائم هنا، والباقي يحدث في لحظة سكر بين أصدقاء لم يعودوا كذلك ... لحظة جنون ..

هذه النزاعات تتم تسويتها في مجالس مشابهة .. وعامة يكون التفاهم حاضرًا والاستعداد للترضية متوافرًا .. لا أحد يريد للخلافات أن تخرج من يوتوبيا ..

الإثارة ..

الإثم ..

التعدي ..

خرق القواعد ..

التحدي ..

كسر التابو ...

المشاغبة ..
المخالفة ..
الهدم ..
التوتر ..
الأدرينالين ..
التغيير ..
التمرد ..
الانحلال ..
الصدمة ..
التميز ..
الدهشة ..
هذا هو اسم اللعبة ..

لأسباب كهذه وفي ليلة كهذه نام (راسم) مستسلمًا وترك لثلاثة من رفاقه أن يفعلوا به ما يشاءون ..

لأسباب كهذه يستحضرون الأرواح بلا توقف .. هي ليست أرواحًا يا حمقى .. إنه عقلكم الباطن يعبث بكم عن طريق ما يدعى بالـ ideomotor effect . لهذا يتحرك لوح الويجا لأنكم تريدون هذا..

ولأسباب كهذه يعبثون في المقابر ليلاً.. (أكمل) تحدث عن النكروفيليا أو مضاجعة الموتى، لكن الأمر لم يبد لي مغريًا وأعتقد أنك توافقني ..

لأســـباب كهذه لا تستعصي أية فتاة عليك هنا أكثر من ثلاثة أيـــام ....وعندما تخضع لك لن تصدق مدى ما هي على استعداد لقبوله بسبب السأم .. لكن هذا لا يثير انبهارك ...

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة .....

لأسباب كهذه أريد أن أجرب الخبرة العظمى ...

* * *

ظـــلام اللـــيل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار .. أعـــرف أننـــي أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكـــن (جابـــر) يمشـــي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايـــا الصـــبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

* * *

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلـــق ذقنـــي .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمـــة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمـــزق كل هذا بالشوكة .. ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتـــثاءب .. أضـــحك .. أبصـــق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس اصـــبعي فـــي حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي علـــى البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويسـكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكـــة .. أتقلـــب على البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعــيات يوتوبــيا ... كل مستعمرة لها جريدتها الخاصة لكن هــناك جــرائد عامــة لا تســتطيع قراءتها من فرط ما فيها من سخف.. أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات على جلدي .. أنتشـــي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشي عاريًا في الــردهة .. ألــبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحم شعارات تقــول: اقــتلوا البيض .. لا أعرف معنى هذا ولا من هم البيض لكنهم هكذا يفعلون في السينما .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم.. الإيقـــاع الجديــد الذي ظهر منذ عام .. الكبار يشعرون أنه مجرد صراخ مجنون ويترحمون على إيقاعي الهيفي ميتال والديث ميتال الراقيين اللذين اندثرا .. أرقص .. أقيء .. آكل من جديد ..

ســاعة واحــدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

* * *

في يوتوبيا ما زالت الأم هي الأم .. لا يمكنك التخلص منها (لاريــن) عائدة من المول حاملة عدة أكياس تحوي ما نحتاج له .. أشياء تؤكل وتشرب وتدهن وتشم وتدهن تحت الإبط وتطلى بها الأظفار .. أعرف أن أكثر ما ابتاعته لا حاجة لنا به .. سوى نتخلص من أكثره .. إنه الملل .. إنه الإحباط .. لا أعرف الكثير عن حياتها الجنسية، لكني أعتقد أن مراد لم ينم معها منذ قرون .. لابــد أنه ملها إلى درجة أن الليبيدافرو ذاته لم يعد مجديًا معها.. عــندما لا يضــاجعك أحــد فأنت تبتاع أشياء لست بحاجة لها ..

عـندما لا يضـاجعك أحد فأنت تتعاطى المخدرات خلسة وتشرب الكثير من الخمر .. عندما لا يضاجعك أحد فأنت تتدخل في أمور الآخرين .. قالت شيئًا عن القيء على البساط وطلبت من الخادمة أن تـنظفه .. قالت إن الفلوجستين سوف يقتلني .. قالت إنني أبدد قواي .. قالت . قالت ....

بلا مقدمات قلت لها:

ـ"أنا راغب في تجربة الصيد .."

شهقت ......

قالت في ذعر وقد اتسعت عيناها:

ـ"هـل ينقصك شيء ؟.. معك من المال ما يكفي لتشتري يوتوبيا كلها .."

ـ"وما حولها .."

ـ"لديك من الفتيات ما يشبع شهوات سلطان فحل من سلاطين ألف ليلة وليلة.."

ـ"والفتيان أيضًا.."

ـ"لديك من وسائل التسلية ما يسري عن جيش من اليتامى الباكين"

ـ"وأحفادهم كذلك .."

ـ"إذن ما المشكلة ؟"

ـ"المشكلة هي هذا كله .. لدي كل شيء.. حان وقت الشيء الوحيد الذي لم أجربه ولم أظفر به .."

قالت في هستيريا:

ـ"لو عدت للكلام في هذا الموضوع سأخبر أباك!"

(مــراد) ليس هنا .. إنه في سويسرا يراجع أرقام حساباته .. هــذا نشاط محمود على كل حال لأن هذا يعني انه سيضاعف ما أنفقــه على الفلوجستين .. أحياناً أتمنى ألا يضيع وقته ويرسل لنا النقود من الخارج ..

قلت لها في تحد:

ـ"(مراد) لا يتدخل في شئوني.. هو أذكى من هذا .."

قالت وهي تلوح بإصبعها في وجهي:

ــــ"للمرة الألف .. اسمه بالنسبة لك (بابا) وليس (مراد).. أنا أســمح لــك بأن تناديني باسمي بدلاً من كلمة (ماما) لكي أحتفظ بصــداقتك، لكن هناك حدودًا يجب ألا تتجاوزها ... وأنا لن اسمح لك بهذا .."

لكنك تدرك على الفور أنها ليست جادة ...

كــل هــذه الأعوام واسمه (مراد).. لا يمكن أن تغير هذا في لحظة لمجرد أنها قررت أن تلعب دور الأم الحازمة ...

لارين لن تقبل لأنها تريد التظاهر بأنها لا تقبل ..

مراد لن يقبل لأنه يجب ألا يقبل ...

إذن ...؟

-3-

عندما تنفتح المقابر وتخرج الشياطين ..
عندما تتناثر جماجم الأطفال في السهول ..
عندما تتلوث أجنحة الملائكة بالدم، وتمارس سندريللا البغاء
عندما يعلن بعلزبول أن الحين قد حان ..
عندها فقط يمكنني أن أغمض عيني مستريحًا ...
وأموت .....

من أغاني الأورجازم

* * *

تـــندفع الســـيارة التـــي تحمل راسم وشادي وريري بسرعة جنونـــية .. تـــندفع بسرعة ثم تتوقف بفرملة مفاجئة تجعلها تدور كالنحلة حول نفسها ..

هـــنا تندفع نحوها السيارة الفيراري التي تخص ماهي .. لو اصـــطدمت بها لشطرتها نصفين ... لكن ماهي تجذب فرملة اليد في آخر لحظة لتدور حول نفسها مع عويل تسمعه يوتوبيا كلها..يا بـــنت يـــا ماهي!...يدير راسم محرك سيارته ويندفع فيوشك على دهـــم واحـــد مـــن الأغيار العاملين هنا، لكن الأحمق وثب على الرصيف المرتفع ..

لسبب ما لا أفهمه يصر هؤلاء على أن يعيشوا .. فعلاً لا أمزح هنا أو أبالغ. لو كنت من الأغيار لتركت عجلات السيارة تمر فوق أحشائي.

كانت ماهي قد فرغت من دورتها فانطلقت تلاحق سيارة راسم .. على الأرجح ستدمر السيارتان اليوم .. لكن المشكلة هي أننا لا نموت .. لا أعني أننا خالدون لكننا صرنا أكبر من المرض والحوادث .. الأغيار يمرضون ويذهبون للعلاج في المستشفى، فتنقلب بهم السيارة التي ما زالت تعمل بالكيروسين في الترعة أو تصطدم بشجرة .. ليت الموت متاح بهذه السهولة هنا !.. إذن لكانت الإثارة عظمى ... لا أعرف السبب لكن الحوادث نادرة عندنا وعندما تقع لا تقتل أحدًا ..

من حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب .. غالبًا ما تنقلب سيارة أو اثنتان وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة، لكنك للأسف لا تستطيع قلب سيارة كل ساعة في اليوم...

لماذا لا ننتحر ؟.. لا أعرف .. الانتحار يبدو سوقيًا و(بلدي) جدًا .. يذكرك بكل هذا السخف عن الأغيار .. الفتى الفاشل في حبه يحرق نفسه .. يا للسوقية ..!.. كيروسين وضوء خافت وحي شعبي ودجاج .. بالذات الدجاج ! .. كل هذا يجعل معدتي تتقلص.. الأب الذي فشل في إطعام أطفاله .. الفتاة التي تبتلع الأسبيرين .. نحن أكبر وأرقى من هذا الهراء .. لابد أن يكون الموت أنيقًا مسرحيًا..

مــوتك وموت الآخرين متساويان .. إذن فليمت الآخرون .. على الأقل يمكنك أن تراهم وهم يموتون بدلاً من أن يروك هم ..

* * *

أقــدم لك (مايك رودجرز) قائد رجال الأمن .. رجل أمريكي من ميسوري لطيف المعشر له شارب أشقر رفيع.. قصّة (الطاقم) crew cut المميزة والعضلات البارزة وطرف الفانلة الخضراء الــزيتية البارز من السترة. معه أستمتع بالكلام بالعامية الأمريكية ذات اللكــنة الريفية الممطوطة كأنه خوار بقرة كسول ترعى في مرج، مع استعمال الكثير من الشتائم البذيئة التي تضحكه .

(مايك) كان من المارينز، وقد حارب في فيتنام في أوائل هذا القــرن .. لا .. آسف .. حارب في العراق .. أخلط بين العراق وفيتــنام كثيرًا فهما بلدان بعيدان قصيان كانت للأمريكان تجارب قاسية فيهما .. قال لي ذات مرة ونحن نتعاطى الفلوجستين:

ـــ"كانت غلطتنا في العراق أننا تواجدنا وسط الناس أكثر من الــلازم .. ســرعان مــا صححنا هذا الخطأ وانسحبنا من المدن لنكثف وجودنا في قواعد مغلقة محصنة حول منابع النفط .."

ـــ"معلوماتي أنكم هزمتم في العراق .."

ضحك كثيرًا ثم استجمع أنفاسه وقال:

ـــــ"أنــت تــتكلم مــثل الأوروبيين .. بدأنا الحرب للإطاحة بالطاغية والسيطرة على النفط وتحويل ذلك البلد الغني إلى أشلاء .. حسن .. فعلنا هذا كله حرفيًا فهل يوجد اسم آخر للنصر ؟"

ـــ"هل كان النفط بهذه الأهمية ؟"

ـــــ"كـــان .. كـــم من حروب خضناها بسببه .. !.. ثم ظهر البايـــرول فجأة من سماء صافية ..ذلك الكيميائي الأمريكي الذي توصل له عام 2010 نال جائزة نوبل .. هنا فقط أمكننا أن ننسى الشرق الأوسط وأن نخرج ألسنتنا لشيوخ البترول ونخبرهم برأينا الحقيقـــي فـــيهم .. يمكـــنهم أن يشـــربوا بترولهم لو أرادوا، لكن الحصول على البايرول له ثمن ..!"

ـ"كان هذا عندما ابتعتم كل الآثار المصرية ؟"

ـــــ"نعم .. لم يكن لدى المصريين ما يُباع سوى الماضي وقد اشتريناه، ودفعنا ثمنه بالبايرول الذي احتكرته يوتوبيا والمجتمعات المماثلة.. عقد لمدة خمسين سنة يكفل لكم البايرول اللازم للحياة.. كـــيف تحسب سياراتكم وطائراتكم هذه تتحرك ؟... كل السيارات والطائـــرات تتحـــرك بالبايـــرول منذ عشرة أعوام .. السيارات والمحـــركات التي تتحرك بالبترول قد انتهى عهدها أو كاد .. لقد صار البترول رخيصًا كالماء، لكن المشكلة هي ندرة الآلات التي تعمل به !"

لـــم يكن هذا الدرس التاريخي يعنيني في شيء ... لا يهمني كيف كانت الأمور ولا كيف صرنا ما نحن عليه .. ما يعنيني هو ما نحن الآن وما سنكون ...

نحن الآن بصدد الخدمة الأهم التي سيقدمها لي ....

ســألته عمـــا إذا كـــان بوسعي أن أجرب الصيد.. قدمت له أسبابي التي تتلخص في ثلاث نقاط: الملل ثم الملل ثم الملل ..

تغيــر أســلوبه ووضع حاجز الكلفة الزجاجي الرسمي بيننا وقال في حزم:

ـــــ"مســتحيل .. ولو حاولت لمنعتك .. إن الظروف خطيرة هذه الأيام والمغامرة غير مأمونة"

قلت في ضيق:

ـــــ"مـنذ ولدت تقولون إن الظروف خطيرة هذه الأيام.. لا شــيء يحـدث .. هؤلاء الذين خارج الأسوار خراف لا أكثر .. صدقني"

قال وهو يشعل لفافة تبغ:

ـــــ"لــو اجـتمعت الخراف الغاضبة على طفل لمزقته تحت أقدامها .."

ـ"هل سمعت من قبل عن خراف غاضبة ؟ .."

ـــــ"هم فقدوا القدرة على الغضب، لكنهم كالخراف يهتاجون أحــيانًا بــلا ســبب ولا مبرر واضح .. ونحن نعيش إحدى هذه اللحظات .."

ثم نفث دخان التبغ وقال في ملل:

ـــــ"اسمع .. لن أسمح لك ما لم أتلق أمرًا صريحًا من مستر (مراد)"

وكنت اعرف أن مستر (مراد) لن يوافق .. هو لا يرغب في المجازفة بوريثه الوحيد ...

* * *

هكذا جلست ذات ليلة مع باقي الشلة نتعاطى الفلوجستين..

رائحة الليمون الواهنة تملأ المكان ...

نجلس على الأرض .. يمرر احدهم الأنبوب الزجاجي الشفاف .. فيه قطارة صغيرة تملؤها ثم تسكب ثلاث أو أربع قطرات على جلد ساعدك .. ناولها لمن بجوارك ... ثم انتظر ...

انتظر حتى ترى الوهج الأخضر يتراقص ...

قطّر كل روائح الكون .. قطّر عبق السراخس في المستنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطّر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطّر البخور الذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطّر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطّر عبق كل غانيات باريس راقصات الكان كان .. قطّر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطّر الأحراش ذاتها .. قطّر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطّر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

الآن أنت لم تعد هنا ... الآن أنت سيد المكان والزمان والكون ذاته ..الآن كل ما حلمت به موجود هنا معك ... يمكنك أن تشرب الأفكار في كئوس، وتصب الخمر في دهاليز عقلك .. يمكنك أن تلتهم الروائح وتراها .. يمكنك أن تشم الضوء .. كل ما خشيته رحل إلى غير رجعة .. أفكار عبقرية تخطر لك لكنك تنساها عندما تتمعن فيها .. عبارات مزاح ظريفة جدًا تتبخر قبل أن تخرج من فمك .. لكنك تقدر أنهم سمعوها .. لهذا تضحك ..

لهـــذا يضحكون ... بعد قليل يأتي الذهول وتشخص عيناك .. هذه هي اللحظة .. إنه (النفق) الذي لن تخرج منه إلا بعد ساعات ...

أشـــرت لـــــ جرمينال كي تقترب مني .. كانت شاحبة قليلاً بعـــد جراحة الكحت والتفريغ التي أجرتها الأسبوع الماضي للمرة الثالـــثة للخـــلاص من ابن جديد لي، وكانت في حالة انسجام تامة فلابد أنها تغوص وسط النيران الخضر الآن .. قلت لها:

ــ"لقد قررت أن أخوض التجربة .. أريد أن أحضر تذكارًا"

شهقت في جزع وإن لم يبد أنها مذعورة حقًا فأضفت:

ــ"نحن هنا ذقنا كل المتع .. نفس ما مر به نيرون وكاليجولا .. لم يعد من شيء يضفي الإثارة على الحياة مثل أساليب هذين.."

قالت هامسة:

ـــــ"لكـــن هـــذا خطر .. أنت تعرف هذا .. هناك يكرهوننا بجنون ولو رأونا بينهم فسوف ....."

ــ"هذا هو ما أريده .. الخطر .. الموت "

بدأ وجهها يتقلص من النشوة لسماع هذه الكلمة .. الخطر .. الإثارة .. كلمات لم تعد في قاموسنا..

لـــيس صـــيد البشـــر غـــزيبًا إلى هذا الحد .. أنا قرأت عن الموضـــوع كثيرًا .. هل تعلم أن صيد قبائل البوشمن كان نشاطًا رياضـــيًا مســـموحًا بـــه في القرن الماضي ؟.. وفي عام 1870 انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد .....

بـــرغم أن الصـــيد غير قانوني في يوتوبيا فإن الكبار كانوا يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه علنا .. وهو شعار يوتوبيا العام:

افعل ما تريد طالما لم تعتد على مال باقي سكان يوتوبيا .. والأهم افعـــل مـــا تريد لكن أبقه سرًا حتى لا تضع على عاتقنا عبء أن نبدو حازمين، ولا تضع على ضمائرنا عبء أن نتظاهر بالشفقة

لكنـــنا نحـــن الشباب صرنا نعتبر الصيد نوعًا من اختبارات الرجولة.. (راسم) فعلها .. تسلل ليلاً إلى منطقة من تلك المناطق المخيفة التي يعيشون فيها . أعتقد أن اسمها منذ عشرين عامًا كان (باب الشعرية) أو شيئًا من هذا القبيل .. اختطف واحدًا من هؤلاء الأغـــيار العاطلـــين وعاد به إلى (يوتوبيا)، وقضى ورفاقه أيامًا ممـــتعة مـــن ملاحقة هذا المخطوف بالسيارات، ثم قتلوه واحتفظ (راســـم) بـــيده المبـــتورة بعـــد ما قام بتحنيطها .. كل واحد من أصـــدقائي قام يومًا ما بهذه الرياضة: رياضة صيد الأغيار، وعاد منها بتذكار ثمين يريه لأمثالي ..

قلت لـــ جرمينال:

ـــــ"اللـــيلة ننطلق إلى الخارج لنأتي بواحد منهم .. ولسوف تأتين معي .."

كانـــت تحبنـــي عندما أصدر الأوامر .. هذا يشعرها بالقهر ويدغدغ ماسوشيتها ..

عـــندما لا يصدر احدهم أمرًا لك طيلة حياتك .. عندما يدللك الجميع .. عندما تتحقق أتفه أحلامك، فإنك تعشق من يرغمك على شيء .. كنا نلعب تلك اللعبة كثيرًا .. نأمر الفتيات وعلى الفتاة أن تنفذ ما يُقال لها مهما كان .. أي شيء ..

لمعت عيناها حماسة ..

لكني كنت أفكر في خطة مناسبة .. ليس من السهل أن تتسلل لعـالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول (يوتوبيا).. إن الفقراء وأبناء الأكابر يـبدون متشابهين عندما تراهم في الظلام من طائرة .. طلقات في الظـلام .. جثتـين هامدتـين وحـادث مؤسف .. سوف يتم حل المشـكلة في جلسة من جلسات الكبار وينال أبي عدة ملايين على سبيل التعويض . .. اعتقد أن هذا الحل يروق له لكنه لا يروق لي ....هذا كل شيء ......

ماذا أفعل ؟

4

غارقًا وسط النيران الخضر التي صارت علامة مميزة لعقار (الفلوجستين).. تلك النار الخضراء الباردة التي تسبح فيها وتنتشي ثم تخرج رأسك طالبًا المزيد، قلت لـ جرمينال:

ــ"هل تعرفين أنهم هناك لا يستعملون أسماء لارين وجرمينال.. ؟.. يستعملون أسماء مثل (باتعة) و(زكية) و(عطيات).. "

وانفجرت ضحكًا .. لا أعرف السبب بالضبط لكن الأمر راق لي كثيرًا ..

قالت جرمينال وهي تدخن لفافة التبغ المحشوة الخامسة:

ــ"أعرف هذا .. نراه أحيانًا في التلفزيون في تلك التمثيليات العتيقة"

الحقيقة أن لنا تلفزيوننا الخاص الذي يعرض فقط ما تريده أنت .. نظام الكابل وسينما المنزل .. هناك إقبال عال على أفلام الجنس والعنف والجريمة .. من الغريب أن الأغيار يقبلون على ذات الأفلام في تلفزيوناتهم الرخيصة لكن لأسباب تختلف .. حب العنف هنا سببه الملل ..حب العنف هناك سببه الفقر والغل المكبوت .... لماذا كان أباطرة روما و عامة الشعب يحبون

مشـــاهدة العبيد يمزقون بعضهم ؟ .. لماذا لم يكسب الفقر الفقراء رحمـــة ؟.. لـــيت أحد علماء الاجتماع يفسر لي هذا .. على قدر علمي يختلف مزاج الأباطرة تمامًا عن مزاج عامة الشعب، فلماذا يتفق المزاجان في شيء واحد هو القسوة ؟ ..

* * *

كانـــت العاشـــرة مساء وقد حان وقت التحرك .. لقد رسمت الخطة بعناية .. في الحادية عشرة تصل السيارة التي تنقل العمال لمـــناطقهم العشـــوائية .. نعـــم هناك عمال في يوتوبيا لأن هناك أعمـــالاً لا نســـتطيع القـــيام بهـــا .. يأتون صباحًا بحافلة خاصة ويعـــودون بهـــا لـــيلاً، وهم تحت المراقبة في كل الظروف .. لا يـــتكلمون ولا يـــرفعون عيونهم لكنك تشم منهم خليطًا مزعجًا من المقـــت والخـــبث والتملق والغضب المكبوت والرائحة الكريهة .. سنوات من القهر جعلتهم أقرب إلى الوحوش ... يومًا بيوم يفقدون جزءًا من آدميتهم حتى صاروا كائنات مريعة بحق ...

انتظـــرت مـــع جـــرمينال في الظلام قرب مكان تجمعهم .. وقعـــت عينـــي على رجل يقاربني في الحجم ووقعت عيناها على امـــرأة تقاربها في الحجم .. كانت الحيلة بسيطة بل هي أقدم حيلة في التاريخ ..

وقفـــت علـــى بعـــد خطـــوات من الرجل أقضم شطيرة من الهامبرجر في تلذذ ..

رأيـــت عيني الرجل تتسعان وهو يرمق الشطيرة .. تحركت تفاحة آدم مع ابتلاع ريقه ..

قلت له في ترغيب:
ـ"هل تريد قضمة ؟"
نظر لي في حذر كذئب يدعوه أحدهم لقطعة لحم، ولم يرد ..
نظرت حولي ثم قلت همسًا:
ـــ"لا أستطيع أن أعطيكها هنا .. تعال خلف هذا الجدار ... لو رآنا أحد الحراس لكانت مشكلة لك"
ولـــم أترك له فرصة للتفكير .. أسرعت خلف الجدار القريب ووقفت ..
بعد دقيقة ظهر لي كما توقعت ولعابه يسيل وعيناه متصلبتان على الشطيرة:
ـ"هاتها ..!"
مـــا أقبح منظره !.. كل عالمه تلخص في هذه الشطيرة التي في يدي ولم يعد يعرف أي شيء عما يدور حوله ..
هنا دارت جرمينال بدورها حول الجدار، ثم هوت على رأسه بقطعة قرميد أخفتها في حقيبتها.. لم يكن هذا سهلاً لأنها لم تعتده، وقد اضطرت إلى أن تهوي على رأسه مرتين لأن الضربة الأولى لم تكن حاسمة جازمة .. وعلى الفور تعاوننا في الظلام على نزع ثـــيابه وارتديـــتها أنا ..مزية هذه الثياب أن هناك بطاقة هوية في جيب كل منها .. هناك (كاسكيت) على الرأس ... لا بأس .. هذا يخفي معظم معالم الوجه ..
تـــناولت جرمينال الشطيرة مني وهي ترتجف ثم وقفت قرب المرأة المختارة ..

تكــرر الســيناريو بــذات الخطوات تقريبا ... الاستدراج .. الجدار ... لقد هويت على رأس المرأة بقطعة القرميد، ثم جردتها مــن ثــيابها لتلبسها جرمينال .. أخفينا ثيابنا الأصلية تحت حجر .... المرأة تلف رأسها بإيشارب وهذا من جديد يسهل الأمور .... يا لها من مغامرة !

الآن فقط اشعر بالأدرينالين يتدفق في عروقي .... النشوة !

نظــرت للسماء ورحت أعب الهواء في جرعات كبيرة ليهدأ قلبي قليلاً فلا يثب من صدري .. توقف !.. بالله عليك توقف !

الآن نصــعد إلى الحافلة وقد تحولنا إلى رجل وامرأة منهم .. فقيــرين كئيبــين .. الثياب كريهة الرائحة خشنة، لكن من قال إن المغامرات مريحة ؟ ..

الحافلة تتحرك ببطء نحو البوابات الخارجية .. نقاط تفتيش.. جــندي أمريكــي يسلط الكشافات على وجوهنا .. لحظة الضعف عــندما يرون ولا ترى .. لكنك تضع ثقتك في قذارة الثياب وفي غطاء الرأس ...

لا أحد يعرفنا في الحافلة لأن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون مــن يأتون ومن يرحلون .. عندما نرغب في العودة سيكون هذا أســهل لأنــني سأتصــل بأبي طالبًا أن يرسل لنا من يعيدنا إلى (يوتوبيا)..

حدث هذا مع (شادي) عندما وجد نفسه محاصرًا في (العتبة) عاجــزًا عــن العــودة .. اتصل بأبيه ملك الاتصالات الذي أطلق بعــض السباب، ثم أرسل له طائرة هليوكوبتر خاصة بالمارينز،

وكـــان المشهد دراميًا مروعًا عندما راحت الطائرة تحلق عموديًا فـــوق (العتـــبة) مطلقة رصاصها فوق الرءوس بينما تدلى رجال الإنقاذ بالحبال ليحملوا (شادي) وصيده ...

وارتفعـــت الطائـــرة فـــوق الرءوس كأنها إله وثني من آلهة الإزتك .. واو !.. أية إثارة !

همست جرمينال في أذني:

ــ"رائحة الثياب كريهة .. هذه المرأة لم تكن تستحم .."

أمـــرتها بالصمت .. لم يعد يحمينا الآن إلا حسن تصرفنا بعد أن خـــرجنا مـــن البوابة، وبعد أن تفحص رجال المارينز هوياتنا دون ان ينظـــروا لوجوهنا .. إنهم لا يدققون فعلاً فيمن يخرج .. المهم من يدخل .. لكن ما يقومون به هو نوع من تأكيد الحضور لا أكثر .. فلتعرفوا من هو القائد أيها الرعاع ..

* * *

تنسحق الشمس إذ تطؤها أقدام الكوكب الأحمر ..

تصرخ الملائكة خوفًا ..

أنت فريستي .. أنت لي ..

فقط عندما تصير جزءًا من خلاياي بعد الافتراس ..

عندها تعرف معنى الأبدية..

من أغاني الأورجازم

* * *

الليل والصمت وإثارة المغامرة .. والصحراء ... أعتقد انني غفوت لبعض الوقت ..

الرائحة الكريهة تدنو من جرمينال .. الرائحة الكريهة والبخر من فم تلفت أسنانه .. امرأة .. تشريحيًا هي كذلك ... أو كما يصف راسم مثيلاتها : هذا رجل مثقوب لا أكثر !

تقرب رأسها من جرمينال كأنها تنين يطل من المقعد الخلفي.. تهمس:

ـ"معك سيجارة يا شابة ؟"

مذعورة تهز جرمينال رأسها أن لا .. يا لسذاجة انعكاساتك!... لو أن كلبًا مسعورًا يتشممك لما تصرفت بهذا الشكل ...

ـ"معك أي شيء يؤكل ؟"

لسبب ما تعتقد هذه المرأة أنها تجلس خلف بوفيه مفتوح ...

تمد جرمينال يدها في الكيس الذي تحمله ولا شعوريًا تناولها بقايا شطيرة الهامبرجر ...

المرأة تقضم من الشطيرة في جشع .. تلوكها في تلذذ شبه جنسي .. تقول إنها لو وجدت سيجارة لصارت الحياة أروع ...

ـ"هل تعملين عند الحمزاوي بك ؟"

لا تعرف جرمينال ما تقوله لها ... تهز رأسها أن نعم .. تقول المرأة إنه وغد ولص وابن كلب .. الرجل صديق أبي لكني أوافق على كل حرف .. لقد اقتصدت الكثير من الأوصاف ...

ألتفت لها وأقول في خشونة محاولاً التخلص من ثقل لغتي العربية:

ـ"كيف خمنت أنها تعمل عنده ؟"

ـ"لأنها شابة مليحة ولأنها تحمل هذه الشطيرة.. "

تمـــد يدها على شكل قمع وتقبض يأطراف أناملها على ذقن جرمينال .. ثمة لمسة غير مريحة في هذه الحركة تتجاوز السلوك الطبيعـــي ... لهذا تجفل جرمينال كأنها لامست ثعبانًا .. لابد أن الأظفار الطويلة تخدش جلدها الناعم ....

تردف المرأة:

ـ"يحب الشابات المليحات .. لديه جيش من الجواري .. ابن الـــزانية يضـــاجع ثـــلاث فتيات في فراش واحد أحيانًا .. مع انه تجـــاوز الســـتين لكـــنه ما يأكلونه .. إن الاستاكوزا وذلك الدواء الجديد يأتيانه يوميًا طازجين من فرنسا .."

كـــنت أعـــرف اســـم الـــدواء الجديـــد لأن أبي يستورده .. (ليبيدافرو).. مستحيل أن تنطقه المرأة .. منذ أعوام كانت الفياجرا ثـــم جـــاء هذا العقار القادر على إتيان المعجزات .. لهذا لا يتوب رجـــال يوتوبيا أبدًا .. لا يشيخون ولا يهرمون، وشهوتهم للنساء أبديـــة كآلهـــة الإغـــريق، لكن الكبار لا يجدون فرصتهم إلا مع الأغيار على عكس الشباب .. أنت تظفر بالمرأة عن طريق فتوتك أو مالـــك أو نفـــوذك أو ســـطوتك... يملك الكبار السطوة والنفوذ والمال ولا يملكون الفتوة الطبيعية التي لا تصنعها العقاقير..

تقول المرأة:

ـــــ"ابـــن الزانية ينام مع ثلاث فتيات كل يوم، لكنه لم يلمس امـــرأته منذ عشرة أعوام .. تسألينني كيف أعرف هذا كله .. لا تـــوجد أســـرار هنا يا حبيبتي .. ما يدور بين الجدران هو تسليتنا

الوحـــيدة كما تعلمين .. لا تخجلي .. أعرف أنه فعلها معك .. لو أقســمت لـــي على المصحف أنه لم يفعل لما صدقت .. لن يصبر الحمزاوي بك أكثر من أسبوع على هذه البشرة الناعمة .."

ثم فرغت من الشطيرة فتجشأت بقوة ومسحت فمها وقالت:

ـــــ"إنـــه منحط الذوق أيضًا .. (بيرمرم)... كنت أعمل عنده وأرادني .. أنا قبيحة كالقرد وليس في ما يجذب أي رجل .. لكنه كـــان ثمـــلاً وقـــد طلبني، كأن البلغم احتشد في حلقه واحتاج إلى مبصقة .. لا تستطيع المرأة منا أن تمتنع عن الحمزاوي بك .. لا أعـــرف السبب .. ربما هو الخوف .. ربما هي سطوته .. فكرة لذيـــذة أن هـــذا العمـــلاق الثري يريدك أنت .. المهم أنك تقبلين دائمًا.. لا تقولي يا شابة إن من يفعلن هذا مرغمات طيلة الوقت.. لا وحـــياتك .. للشـــرف حدود يتهاوى بعدها .. المهم أن الخنزير انفـــرد بي لحظات، ثم أدار ظهره لي وقد زالت شهوته فأدرك كم أنـــا منفرة.. هكذا تقيأ وركلني بقدمه ركلات متتالية حتى ألقي بي من فوق السلم مثل تلك الأفلام القديمة .. أفلام يوسف بك وهبي.. راح يسبني سبابًا مقذعًا ... أنا أعرف أصل وفصل هذا الرجل .. هـــؤلاء لم يأتوا من السماء .. كلهم جاء من أسفل أسفل الطبقات، لكننا وأهلنا كنا أغبياء كالبهائم بينما هم عرفوا كيف يعصرون من الزلط دهنًا .... "

ثم في ظلام العربة نظرت نحوي وقالت :

ـــ"وأنت يا الجدع ..؟.. هل تعمل عند الحمزاوي بك كذلك ؟"

قلت لها في حذر وبذات الصوت الخشن:

ـ"مراد بك .."

حان وقت معرفة شيء جديد عن مراد .. أبي ..

أطلقت صهلولة مزقت صمت وظلام العربة وقالت:

ــــ"إذن أنــت مــنهم يا سيد الرجالة !!... هيء هيء !.... عرفت هذا على الفور عندما سمعت صوتك الناعم .. ما جمع إلا ووفق !... هي تعمل عند الحمزاوي بك وأنت عند مراد بك . لو حــدث العكس لكانت مصيبة .. كان مراد بك سيضربها بالجزمة وكــان الحمزاوي بك سيمزقك بالسياط .. هيء هيء !.... هكذا أنتما آخر انسجام .. الأكابر راضون عنكما !"

كانــت معلومات عجيبة . وقد بدأت أتذكر سلوك مراد وأجد علامات استفهام لم ألحظها هنا وهناك ..

هــل المــرأة تطلق إشاعات لا نصيب لها من الصحة، أم إن الأمر كذلك فعلاً ؟..

ومــاذا يهــم ؟.. مــراد هو الرجل الذي يصدر لي الأوامر لأرفضــها ويعطينــي المال .. ما أهمية سلوكه الأخلاقي ؟... أنا لست مسئولاً عن أخلاق أبي .. لن أناسبه على كل حال ....

هنا انخفض صوت المرأة وقالت في الظلام:

ـ"برغم هذا أنجبت منه .. لا يأتي العالم سوى الطفل الذي لا تــريدينه وتدعــين الله أن تزهق أنفاسه .. ابن حرام فعلاً.. كنت وحدي ساعة الولادة .. قطعت الحبل السري بسكين صدئة وجدتها جــوار الفــراش ثم رفعت الرضيع من قدميه وتأملته .. كتلة لحم ملــوثة بالــدم المتخثر.. ابن الحرام يطالب بحقه في الحياة . ابن

الحـــرام يطالب بالغذاء والهواء والدفء والحنان ... لم يكن هناك ما أفعله له .."

هنا فقط علا صوت جرمينال تسأل في قلق:

ـ"ماذا فعلت ؟"

تضـــحك المـــرأة .. تضحك .. صدرها يترجرج بما فيه .. صدرها يتحشرج .. تسعل .. تبصق ...

ثم تلقي برأسها إلى الخلف ويتصاعد شخيرها....

ظـــلال الطـــريق تركض على ملامحها القبيحة التي زادتها المرارة وعورة .. طريق حجري آخر محفور على قسماتها ...

تتصاعد النشوة في دمي .. دمي يغلي ...

كلماتهـــا ألهـــبت خيالي .. كل هذا الألم .. كل هذا الشقاء .. الموت .. القتل ....

مددت يدي واعتصرت يد جرمينال وعضضت لساني من ألم النشوة ... هذا كل ما أستطيع عمله الآن .....

-5-

الآن نحن ندخل أرض الأغيار ......

العــالم الآخر الذي تركناه منذ زمن، يوم توارينا خلف أسوار (يوتوبيا)..

شبرا ..

هكذا يطلقون عليها ...

شبرا التي لم أرها إلا في أفلام السينما .. للاسم رنين غريب قــاس فــي مســمعي .. لابــد أن له رنين سييرا مادري أو ريو جــراندي فــي مسامع الأمريكيين .. تتوقف الحافلة وسط الزحام ويتــرجل بعض الراكبين، فأشير لــ جرمينال كي تترجل معي .. هنا بداية لا بأس بها ..

أيــن ذهــبت تلك المرأة ؟.. لا أعرف .. هكذا تذوب الوجوه التي لا اسم لها في الظلام والزحام ...

خلــيط عجــيب من الروائح والأصوات والمشاهد .. الرائحة الأولــى والرئيســة هــي رائحة العرق .. في هذه الرائحة ذابت روائــح غريبة من المأكولات والوحل والفضلات البشرية وربما الدماء ..

هناك عربات تكدست فوقها أطعمة .. خلائط من الأطعمة .. هناك كومة أرز وكومة من مادة عجينية بيضاء أعتقد أنهم يطلقون عليها اسم (كسكسي) وبرتقال ويوسفي ومشروبات ساخنة لا تعرف ما هي .. منذ زمن صار هناك باعة جائلون للخمور، ولكن أية خمر هذه ؟.. زجاجة بحجم الكف ثمنها خمسون جنيه مع كل هذا التضخم !.. لو كان هذا بولاً لكان سعره أكثر من ذلك.. زجاجات عطر قديمة امتلأت بما لا يمكن معرفة كنهه .. أعتقد إن الكحول الأحمر عامل مشترك بين كل هذه السوائل .. قال مراد إن هذا – بيع الخمر في الشارع – كان عملاً لا يمكن تصوره منذ عشرين عامًا، لكن الأخلاق تتآكل في الفقر كما يتآكل المعدن الذي يقطر فوقه الماء .... والأغرب أن الكحول الميثيلي لا يصيب هؤلاء القوم بالعمى كما يفعل في العالم كله.. لو كانت معدتهم من حجر فكبدهم من فولاذ وعصبهم البصري كابل كهرباء ..

الشطائر مشكلة أخرى ... كومة من الشطائر .. شطيرة مليئة بما يزعمون أنه كبدة وثمنها عشرون جنيهًا !... لو كانت هذه أكباد فئران لما أمكن بيعها بهذا السعر ...

الخلاصة التي توصلت لها بعد دقيقة في هذا العالم هو أن هؤلاء القوم يتظاهرون بأنهم أحياء .. يتظاهرون بأنهم يأكلون لحمًا ويتظاهرون بأنهم يشربون خمرًا، وبالطبع يتظاهرون بأنهم ثملوا وأنهم نسوا مشاكلهم ... يتظاهرون بأن لهم الحق في الخطيئة والزلل ..

يتظاهرون بأنهم بشر ...

* * *

الآن فقط افهم لماذا عزلنا أنفسنا في (يوتوبيا).. لم يعد في هذا العالم إلا الفقر وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جوعى متوحشة .. منذ ثلاثين عامًا كان هؤلاء ينالون بعض الحقوق أما اليوم فهم منسيون تمامًا .. حتى الكهرباء والماء مشكلة فردية لكل منهم .. من استطاع أن يحصل على مولد أو يحفر بئرًا فبها ونعمت، وإلا فعليه أن يتحمل ..

الغريب أنهم تكاثروا بسرعة لا تصدق .. معدل الخصوبة عندنا في يوتوبيا يوشك أن يصير صفرًا، بينما معدلاتهم في ارتفاع متزايد .. ينجب الرجل عشرة أطفال يموت منهم خمسة لأنه لا توجد عناية طبية من أي نوع، لكن الزيادة مستمرة برغم كل شيء .. يبدو أنهم يعتمدون على الأعشاب والوصفات الشعبية اعتمادًا مطلقًا .. أبي يحتكر كل الدواء في السوق وأسعاره خيالية، لكن هناك دائمًا من يشتري .. لغز هذا البلد هو أن هناك من يشتري في كل وقت وبأي سعر، وهو ما يثبت لك أن (ماركس) أحمق على الأرجح عندما تصور أن التوازن سيأتي في لحظة لا يعود فيها الفقراء قادرين على الشراء ..

بعض هؤلاء القوم متدين، لأن الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت .. لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته ثم يموت فيتحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب .. عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف، لكن

السبب - كما أعتقد - هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة . ان يصحوا ليجدوا أنفسهم وسط هذا الزحام يبتاعون شطائر من كبد الفئران ويشربون الكحول الأحمر .. إن الأمر يحتاج إلى عدد كبير من العمرات والأدعية كي تتجنب هذا المصير الأسود.. الخلاصة انه من العسير اليوم أن تجد متديناً بغرض التدين في حد ذاته ...

* * *

"واصل المعتمرون المصريون عمليات الهروب الجماعي المنظم داخل الأراضي السعودية، وفوجئ العاملون بأحد فنادق مدينة مكة المكرمة ومندوبو الشركة المنظمة للرحلة يوم الخميس الماضي بهروب جميع المعتمرين المقيمين بالفندق، البالغ عددهم 72 معتمرا ليلاً دون أن يشعر بهم أحد أو يشاهدهم أثناء خروج متعلقاتهم الخاصة. قال أسامة العشري وكيل وزارة السياحة: الغريب في الواقعة الثانية أن المعتمرين تركوا جوازاتهم وتذاكر السفر عكس الواقعة الأولي التي قام فيها المعتمرون بالاعتداء علي سائق الأتوبيس ومندوب الشركة المنظمة للرحلة، للحصول علي جوازات السفر.."

موقع مصراوي بتاريخ 26-8-2007

* * *

كنا نمشي وسط الجموع ذاهلين .. علينا ألا نلفت الأنظار لنا، لكني شعرت بضخامة هذه المغامرة التي ألقينا بنفسينا فيها ..

تشد جرمينال يدي في عصبية فأنظر إلى حيث تشير.. هناك قفص خشبي عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر .. المصيبة أن الناس يبتاعون هذه الأشياء .. أقاوم العصارة التي ارتفعت إلى حلقي وأجرها بعيدًا .. سوف تفضحنا بطريقتها الانفعالية الهستيرية هذه .. لو دقق أحدهم في وجهنا لرأى أننا لم نعرف الجوع يومًا ..

البائع ينادينا:

ـــ"تعال يا أخ .. منذ متى لم تطه الخضار على (زفر) ؟.. هذه الجلود تؤدي الغرض تمامًا .."

يرفع سلخة من الجلد ويلوح بها على سبيل الترغيب ....

يبدو أن أرجل الدجاج رائجة كذلك .. الرءوس .. الأجنحة .. لكن أين الدجاج نفسه ؟.. حتى دجاجهم تحول فيما يبدو إلى عظام يكسوها الجلد فقط .. لا عضلات ولا أحشاء ..

طفل ضال أجرب يلتقط شيئًا من على منصة بيع ويفر به فتلاحقه اللعنات وتتطاير الشباشب خلفه ..

أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة .. هناك من يقول إن الجنيه كان أعلى سعرًا من الدولار يومًا ما .. لا أصدق هذا وقد صار الدولار يساوي ثلاثين جنيهًا .. هذا نموذج مخيف للتضخم لأن ثمن هذا القميص لن يتجاوز ربع دولار بحال . لسبب كهذا تجد أن أسعار الأشياء تحدد بمئات الجنيهات. وأعتقد أنهم يفضلون المقايضة على كل حال باعتبارها أقرب للحقيقة.

الآن نخـرج من منطقة السوق هذه كي نتوغل بين مجموعة مـن العشش الصفيح أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب .. الأرض مبـتلة تغـوص فـيها قدماك .. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجاري الطافحة .. أمشي في حذر لأن التعثر هنا نوع من الانتحار ..

علـى أبـواب العشـش تقـف نساء قذرات بشعات المنظر يضـحكن لـي في إغراء .. أعتقد أن أصغرهن تجاوزت الخمسة والثلاثـين مـنذ زمن، لكنها لا تمارس مهنتها بسبب تأخرها في الزواج بل من أجل المال ..

على قدر علمي لم يصدر أي قانون بإباحة البغاء، لكنه صار ظاهرة حقيقية .. صار أقوى من القانون .. أقوى من العرف ...

أعـرف أن سن الزواج كان قد صار أربعين عامًا للفتاة ولم يعـد هناك سن زواج للرجل، ثم حدث أحد الانقلابات الاقتصادية إياها فصارت شروط الزواج أسهل .. يكفي أن تجد من تقبل بك، وعندها لا داعي للسكن ولا الراتب .. سوف يعنى كل واحد بنفسه والأطفـال سـوف يجدون رزقهم بشكل ما .. هكذا انخفض سن الزواج من جديد ..

كان هذا كله أقبح من اللازم ..

أبشع من اللازم ..

أكثر واقعية مما يجب ...

عـــندما يـــزحف القبح والعطن على كل الإثارة التي يولدها الخـــيال .. تلتف الغصون الشائكة الطفيلية حول الثمار، وتزحف العقارب بين اللآلئ ...

* * *

كـــان اسمها كاتي .. أمريكية هي .. أول فتاة عرفتها .. في سن الثالثة عشرة كانت هي الحلم الرومانسي الأبدي.. كانت أكبر مـــن الحـــياة ومن الواقع، ثم ظفرت بها في تلك الليلة فوق رمال الشاطئ المبتلة.. عندها ماذا عرفت وماذا رأيت وماذا شممت ؟.. هـــويت من قمم الأوليمب لأزحف في الوحل، وعرفت أن الواقع أقبح مما تتصور ...

يجـــب أن ننتهي من مهمتنا ونرحل .. فلنختطف من نختطفه ونفر ...

* * *

فتاة تنظر لي وتغمز بعينها غير مبالية بجرمينال التي تمشي جواري ..

هنا خطرت لي فكرة ..

هنا صيد سهل هش بينما الذكور يمكن ان يكونوا خطرين .. هم بالتأكيد خطرون ..

يـــبدو ان جرمينال فهمتها هي الأخرى فابتعدت عني .. هكذا مشـــيت وحيدًا إلى حيث الفتيات الواقفات يبحثن عن طالب شهوة، فانتقـــيت بعينـــي واحدة منهن .. لم اخترها إلا على أساس قوتها

عـــدها عدة مرات كأنما هو يجرد محتويات خزانة الولايات المـــتحدة، ثم بصق جانبًا ودس المال في حزامه .. ومن جديد لم يبد أنه يرانا أصلاً...

سألتني الفتاة وهي تفك تنورتها:

ــ"هنا ؟"

ــ"أفضل الابتعاد فأنا خجول .."

أطلقتْ صهلولة عالية رقيعة ومضت معي ...

فقـــط بطرف عيني كنت انظر للخلف فأرى جرمينال تحاول اللحـــاق بنا خائفة متعثرة .. وسط هذه الخرائب والفئران لابد أنها تعيش أسوأ لحظات حياتها ....

وأخيرًا صرنا وحدنا تقريبًا . فتحت الفتاة فمها لتتكلم:

ــ"هلم انته الآ ...."

لكنـــي فـــي اللحظة التالية انهلت على جذور عنقها بضربة سيف يد تعلمتها عندما زرت (كمبوديا)، فسقطت على الأرض بلا حراك .. فقط عيناها شاخصتان ...

وفـــي اللحظـــة التالية سمعت جرمينال تناديني .. بمعجزة ما اخترقت الخرائب بكل المتعاطين المتجمعين فيها ..

قلت لها لاهثًا:

ــــ "انتهى الأمر .. سأطلب أمي كي ترسل من يخرجنا من هنا .."

ومـــددت يـــدي فـــي جيبـــي لأخرج المدية التي سأنجز بها مهمتي...

فـــي هذه اللحظة سمعنا حركة .. رفعت عيني فرأيت عشرة من هؤلاء الشباب يحيطون بنا .. وسمعت من يقول:

ـ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

[illegible]

[illegible]

بد أنه يريد أن يصرخ: "لا ليتها لم تأت ...! لكنه لم يفعل شيئاً"..

سألتني الفتاة وهي تلف شعرها:

ـ هنا ؟

ـ أفضل الابتعاد فأنا جوعان ..

أطلقت ضحكة عالية رقيقة ومضت معي ..

فلمحت بطرف عيني تحت أنظار الحطب فأرى هرميال تحاول اللحاق بنا خائفة متعثرة في وسط هذه الغرائب والغرائز لابد أنها عرفت أمرا لحظات هربها ...

وأخيراً صدرنا وحدنا تقريبا . فتحت الفتاة فمها لتتكلم:

ـ "هل لك الآن ......"

لكنني في اللحظة التالية لمحت على حدود حذائها مضرجة بيف يد تعلقها بعدما رأتنا (كمبوديا) ، انسقطت على الأرض بلا حراك .. فقط عيناها شاخصتان ...

وفي اللحظة التالية سمعت هرميال تصيح ... مسجوعة بما تفرقت الغرائب بكل المتعاطين المتجمعين حولها ..

قلت لها لاهثاً:

ـــ "انتهى الأمر ... سأطلب إلى كل الرجال من يخرجنا من هنا .."

ومضت يدي في جيبي الأخرى ع المدية التي سأتحجز بها مهمتي ...

الجزء الثاني

الفريسة

-1-

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعــرف أنني سأموت بعد يومين فلا تقل العكس .. لا تكرر هذا الهراء وإلا طعنتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة .. أنا لم أفعل هذا منذ زمن .. قرنيتي الحبيبة .. وما بعد الجنس ...

منذ متى ضاع كل شيء ؟

لا أعرف ..

يشــبه الأمر مراقبتك للشمس ساعة الغروب .. لا تعرف أبدًا متى انتهى النهار وبدأ الليل .. متى بهت الضوء وبردت الأشياء، ومتــى تسرب دم الشفق الأحمر يلوث الأفق، ولا متى ساد اللون الأرجواني كل شيء .. لا يمكنك أن تمسك لحظة بعينها .... ليس بوسعك أن تقول: هنا كان النهار وهنا جاء الليل ...

فقــط أذكر أن الأمور كانت تسوء بلا انقطاع.. وفي كل مرة كان الفارق بين الوضع أمس واليوم طفيفًا، لذا يغمض المرء عينه كــل لــيلة وهو يغمغم: أهي عيشة ..ما زالت الحياة ممكنة .. ما زال بوسعك أن تجد الطعام والمأوى وبعض العلاج .. إذن فليكن غد ..

ثـــم تصحو ذات يوم لتدرك أن الحياة مستحيلة، وأنك عاجز عن الظفر بقوت غد أو مأواه ..

متى حدث هذا ؟.. تسأل نفسك فلا تظفر بإجابة ....

* * *

الموعد كان منتصف الليل ..

أشق طريقي بين العشش العتيقة التي كانت فيما مضى تشكل شـــارع (شبرا). نعم .. أذكر أنه كان هنا شارع واسع تمشي فيه السيارات على الجانبين .. تراهنت مع (زينهم) على أنه كانت هنا سينما يومًا ما. ابن الكلب لا يعرف معنى سينما أصلاً لكنه يجادل بالباطل.

بصـــراحة أنا أيضًا لا أذكر إن كانت هنا سينما أم لا .. لكني علـــى الأقل أذكر ما هي السينما .. كانت هناك صور عملاقة جدا تتحرك، وكان هناك ظلام يمكنك فيه أن تدخن الحشيش بسهولة .. يبدو أنه كانت لي تجربة أو اثنتان فيها لكني لا أذكر مع من ..

الموعد كان منتصف الليل ..

بـــاب المتـــرو المغلق .. أنا أعرف كيف أفتحه .. فقط أدس رأس المسمار في القفل الحكومي الصدئ وأدق بحجر فينفتح القفل فالجنزير . هذا المدخل يعرفه كل أولاد الليل مثلي. لكننا نحرص علـــى أن نغلقـــه عند الخروج. لا نريد أن يتمكن أحد من دخول عالمنا السري تحت الأرض..

أزيـــح الستار الحديد وأنسل إلى الداخل .. الممرات المظلمة الخالية عطنة الرائحة ..

أشعل مشعلاً وأرفع يدي لتتسع دائرة النور ..

هناك تقف عربات المترو الخربة كوحوش هامدة.. لقد انتهى أمـــرها منذ كف السادة عن استعمالها ورحلوا إلى مستعمراتهم .. يوتوبيا وسواها ... لم تعد هناك صيانة .. لم تعد هناك كهرباء .. في النهاية وقفت هذه الوحوش الصدئة النائمة للأبد، ومن الواضح أنهـــا لـــن تتحرك ثانية .. بعض الشباب لا يعرفون أنها موجودة أصلاً..

في زمن ما كانت هذه العربات فائقة الشهرة، وكان هذا أعظم إنجـــاز للحكـــومة منذ دهور. لا أعرف متى تداعى وانهار. لكنه تزامن مع ميلاد يوتوبيا على الأرجح. أعتقد أن الناس نعموا بهذا المشروع خمسين عامًا أو أقل .. بعده صار مأوى للكلاب الضالة ثم لم تعد هناك كلاب ضالة .

لم يعد سوانا ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ... أواه !!....

هـــناك كانوا يقفون .. (عبد الظاهر) و(متولي) و(محروس) و(مينا) ...

عرفوني من مشيتي العرجاء ومن قامتي فهتف (مينا):

ـ"سلام يا (جابر).. والمسيح الحي انتظرناك كثيرًا "

لا يمكـــنك أن تعرف دين أي واحد هنا ما لم ينطق بقسم من نـــوع (المســـيح الحـــي) أو يصل على رسول الله، فحتى الأسماء صـــارت عادية محايدة لا تدل على شيء .. (فريد) .. (عوض).. (عمـــاد).. الخ. لو كانت هناك مزية وحيدة لمجتمعنا هذا فهي أنه

لا يعــرف شــيئا اســمه التفرقة الدينية. لقد تحققت جنة المساواة الطائفية ولكن بشكل عجيب لم يدر بذهن أكثر الفلاسفة جموحًا .. منذ ساوى الفقر بين الجميع، لم يعد أحد يعرف إن كنت مسلمًا أو مسيحيًا إلا عندما تعلن أنك ذاهب لعمرة، أو ينكشف ساعدك

ليظهــر وشم الصليب .. لولا انتهاء عصر البترول لاشتعل الوضــع الــذي كــان مرشــحًا للانفجار في أوائل القرن الواحد والعشرين ...

هتف (عبد الظاهر) في وجهي:

ـــ"هل معك (فلوك) ؟"

أطلقــت صوتا نابيًا من خياشيمي .. (فلوجستين) معي أنا ؟.. هــؤلاء الــبلهاء لا يســتطيعون نطق اللفظة كاملة لذا قرروا أنه (فلوك)...

ـــ"من أين يا بن الـــ ...؟"

ثــم دسست يدي في جيبي وأخرجت سيجارة ملغومة وقذفتها له:

ـــ"هذه معي .."

أطلق صوتا نابيًا آخر وهتف:

ـــ"جميل .. عدنا لأيام الروضة .. "

لكنه أشعلها برغم كل شيء وأطلق سحابة كثيفة من الدخان.. لــم يعد شيء بقادر على التأثير في هذا الجهاز العصبي، فلا شك أنــه بحاجــة إلــى طــن من الحشيش كي يشعر بانبساط وقتي. الفلوجستين .. الفلوجستين هو سيد المخدرات لكن من أين لنا به؟.

هـــناك فـــي يوتوبـــيا تســـيل انهـــار الفلوجستين .. إنهم يأكلونه ويشـــربونه.. إنهـــم يعرقونه .. إنه طمث النساء وبول الرجال .. صـــنابير الماء لا ينزل منها ماء بل فلوجستين .. يغسلون أقدامهم في الفلوجستين .. يسقون كلابهم فلوجستين.. لو حدثت ثورة يومًا مـــا فلن تكون من أجل المساواة، بل من أجل مطالبة المحرومين بحقهم الطبيعي في الفلوجستين..

(عـــبد الظاهر) بلطجي لكنه جدع .. أعترف أنني أحبه وأثق فيه. خاصة عندما لا يساوره ذلك الهاجس المرضي ويروح يحكي لنا خطته بصدد البايرول ويوتوبيا .. أنا أعتبر هذه الخواطر نوعًا مـــن الاســـتمناء الفكري. هو لم يفعل شيئًا .. لن يفعل شيئًا على الإطـــلاق.. لـــذا يقضـــي الوقت في وصف المتع الجهنمية التي تنتظره لو نفذ خطة البايرول تلك ..

قال (متولي) وهو يسلك أذنه بإصبعه:

ـــ"سليمان ينتظرنا هناك .. عند فتحة (سانت تريز).."

كانـــت اللافـــتات الصـــدئة المتسخة لا تقول أي شيء على الإطـــلاق .. لكنـــنا صرنا قادرين على تحديد اتجاهاتنا في ضوء اللهب المتراقص.

هكذا وثبنا إلى عربات المترو التي لم يعد فيها مقعد واحد ولا لوح زجاج واحد، ومنها وثبنا إلى القضيب ثم إلى الجهة الأخرى، ورحنا نركض في الظلام قاصدين تلك الفتحة ..

هنا رأيناهم ..

كانوا خمسة يقفون هناك وقد أدركنا على الفور أنهم (بيومي) وشلته.

وسطهم على ضوء المشاعل رأينا واحدًا ممزق الثياب مذعورًا والدم يسيل من أنفه ..

لقد قبضوا على سليمان ..

* * * *

يمكن أن يتحمل المرء الحياة بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب (ربما بضعة أيام)..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة..

بلا جهاز هاتف ..

بلا جهاز تلفزيون ..

بلا ربطة عنق ..

بلا أصدقاء ..

بلا حذاء ..

بلا سراويل ..

بلا فلوجستين ..

بلا واق ذكري ..
بلا أقراص للصداع...
بلا مؤشر ليزر ..
لكنه لا يتحمل الحياة بلا أحلام ..
منذ طفولتي لم أجرب العيش بلا أحلام ..
أن تنتظـــر شيئًا .. أن تُحرم من شيء .. أن تغلق عينيك ليلاً وأنت تأمل في شيء .. أن تتلقى وعدًا بشيء ..
فقــط في سن العشرين أدركت الحقيقة القاسية، وهي أن علي أن أحيا بلا أحلام ..
لـــن يكون هناك شيء يا صاحبي .. لا اليوم ولا غدًا ولا بعد يوم ..
حـــياتك حاضـــر طويييييييي ـــيـــــ (مـــاذا تنتظـــر ؟) ـــيييي ـــــــ (لا شيء) ـــــــــــييل قاس ..
فقــط فـــي هـــذه اللحظات أدركت أن علي أن أخوض حربًا مريرة مع ذلك الطفل المزعج في داخلي .. الطفل المزعج يصرخ ويركل الأرض بقدميه: "لا أحلام ؟.. كيف ؟؟"
ثم ينطلق في سباب بذيء ويضربني ويعضني، لكني في كل لـــيلة أصفعه وآمره أن يخرس .. لا أحلام يا ابن الــ (...)... لن يكـــون هناك غد .. الغد أخذوه منك وعليك أن تقبل كما قبلت ألا يكون عندك مأكل أو مشرب أو ثياب أو سقف أو حبيبة أو كرامة أو أسرة أو ثلاجة أو هاتف أو تلفزيون أو ربطة عنق أو أصدقاء

أو حـــذاء أو ســـراويل أو فلوجســـتين أو واق ذكري أو أقراص للصداع أو مؤشر ليزر ..

يطلق المزيد من السباب البذيء ثم ينام ...

حاضـــر طوبيييييييييـــــــ (ماذا تنتظر ؟) ـــييييـــــــــ (لا شيء) ـــــــــــــيبل قاس ..

* * *

لـــم أكـــن الأشجع ولا الأقوى .. لذا تقدم (عبد الظاهر) منهم وهو يلوح بالسنجة التي يحملها ، وقال بصوت أراد أن يكون قويًا فخرج متوترًا متحشرجًا:

ـــــ"مـــاذا تريد يا (بيومي) ؟.. منذ زمن نحن كقطارين على قضيبين .. يتحركان عكس بعضهما لكنهما لا يلتقيان .."

أطلق بيومي سبة، وانفجر ضاحكًا .. بصق وقال:

ـــــ"مـــن لكـــم بمعرفة القطارات يا أولاد العاهرات ؟.. أنا أذكرها جيدًا وركبتها أكثر من مرة .. كانت القطارات لا تلتقي إلا عـــندما تقـــع حادثـــة، عندها كانت الجثث الممزقة والدماء تغطي الحقول !"

كان كلامه واضحًا .. لقد تجاوز حد التلميح ..

مـــد يده في الجوال الذي يحمله (سليمان) وأخرج جثة الكلب العملاق .. رفعه من عنقه برغم وزنه الثقيل، ورأيت العضلة ذات الرأسين تتكور مبللة بالعرق لامعة في ضوء اللهب:

ـــ"هذه المكالمة لنا .. هذا يلزمنا .. "

لم نكن لنتحمل هذا أيضًا .. المعدة خاوية والجائع مجنون .. بعــد كل هذا الجهد يضيع منا الكلب الذي ظللنا ننصب له الكمائن ثلاثة أيام ؟..

متــى يمكــن أن تجــد كلبًا آخر ؟.. لم تعد هناك كلاب في الشوارع على الإطلاق .. لا قطط .. لا فئران .. نشوة الشواء في الخــرائب والمــزاح مع أنفاس الحشيش .. و(صفية) التي لم تذق أكلة محترمة منذ شهر ؟... كل هذا كان ينتظرنا لو لم نر ابن الــ (.....) هذا ..

هــنا فقــد (عبد الظاهر) أعصابه وصرخ بصوت ارتجت له ممرات المترو:

ـــ"ســترون يــا أولاد الــ (...) !! .. هذا الكلب لنا .. لنا وحدنا وسنموت على جثته !"

وعلى الفور وثبنا جميعًا لنلتحم بهؤلاء الأوغاد ...

-2-

سأموت خلال يومين أو ثلاثة ..

تســألني كــيف عرفت هذا ؟.. أقول لك إنه لا فرصة للنجاة أمامــي .. أنــا ولــدت خاسرًا ولسوف يظفر بي الفتى القادم من (يوتوبيا) لا محالة ..

لهــذا أتذكر .. لهذا أمرر مذاق حياتي على لساني كما يمرر المرء مذاق النبيذ المر بعد ما فرغت الزجاجة ..

أتذكــر أشــياء وأماكن ووجوهًا وكلمات وأبيات شعر وكتبًا وروائح، لكني في أغلب الأحوال أتذكر نساء ...

اسمها كان (عزة)...

لماذا أتذكرها الآن ؟

(عزة) كانت تبيع الخبز على ناصية حارتنا ..

(عــزة) تضــحك .. (عزة) تهتز .. (عزة) تقطب .. (عزة) تغمــز .. (عــزة) تنتشــي .. (عزة) تتشاجر .. (عزة) تتلوى .. (عزة) تهمس ... (عزة) تبتسم .. (عزة) تفكر ..

(عزة) تبيع الخبز ..
قالت لي مرارًا:
ـ"أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."
قلت لها إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي. حكيت لها عن كثير عزة فقالت لي:
ـ"اتنيل "
فتنيلت ..
قالت لي إنه مفترس .. إنه يغار عليها .. إنه يحمل مطواة قرن غزال يمكنه أن يرشقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهيها .. يعتقد أنها له. بعد أن ينالها قد يضمها إلى سمية ..
وجاء اليوم المحتوم الذي انتظرناه في رعب .. أنا أردت أن أعرف .. هي أرادت أن تعرف .. السرجاني أراد أن يعرف ..
لا أذكر سوى أنه كان ينفخ من منخريه كالثور .. لا أذكر سوى أنه كان يمزق لحم ساعديه وصدره بنصل مطواته بلا سبب واضح، فقط ليريني أنه لا يخاف شيئًا ...
لا أذكر سوى الطعنة .. شق يبدأ من الجفن العلوي ويمر بالقرنية وينتقل إلى الجفن السفلى ..

لقد فقدت قرنيتي .. البلهاء يقولون (عينه باظت) لأنهم لا يعرفون ما هي القرنية .. أنا أعرف أشياء كثيرة .. حتى والنصل يمزق عيني كنت أدرك الفارق التشريحي بين القرنية والعين كلها.

برغم هذا أعترف أنني جرحته كثيراً .. لو حسبت المهزوم بكمية الدم التي سالت منه فهو قد هزم. صحيح أنه من جرح نفسه بنفسه .. لكن العبرة بمن ينزف أكثر .. حمله رفاقه ليبعدوه وهو يخور كالثيران متوعدًا إياي بالمزيد .. لابد أن الخمر لعبت برأسه جدًا ..

قلت لها وهي تضمد عيني النازفة إنني أشتهي قبلة ..

قالت لي:

ـ"أتنيل .. عينك باظت"

ضحكت برغم الألم .. برغم الدم الذي سال ليملأ فمي في وضعي الراقد وقلت:

ـ"ليست عيني .. قرنيتي فقط"

* * *

اسمها كان (نجاة)..

لها عين يمنى تالفة مثلي ..

كانت بلا عمل سوى أن تسرق أشياء من الباعة .

زوجها تركها لأنه حاول مرارًا أن يقنعها بأن (تفتح مخها) لكنها رفضت في إباء .. هناك كنز في الدار يمكن أن يكفل له حياة طيبة، لكن الكنز يرفض أن يباع ..

جاءهـــا ذات لـــيلة ثملاً ومعه ثلاثة من رفاقه، ثم تركهم في العشـــة معهـــا وخـــرج بلا سبب واضح .. لكنها خرجت وراءه وأغلقت العشة عليهم من الخارج وملأت الحارة صراخا وعويلا, وســـرعان مـــا اكتشـــف كـــل واحد من الجيران في نفسه مدافعًا محمومًا عن الأخلاق.. هناك في العشة لحم بشري ثمل عاجز عن المقاومـــة ينتظـــر مـــن يصـــفعه ويركله ويبصق عليه. وقد فعل الجيران هذا في حماس ..

لـــم يجرؤ زوجها على العودة لأنه ضعيف الجسد والشخصية أمامها ..

(نجـــاة) تضـــحك .. (نجاة) تهتز .. (نجاة) تقطب .. (نجاة) تغمـــز .. (نجـــاة) تنتشـــي .. (نجاة) تتشاجر .. (نجاة) تتلوى .. (نجاة) تهمس ... (نجاة) تبتسم .. (نجاة) تفكر ..

(نجاة) تسرق الأسماك من الباعة وتكون تجارتها الخاصة .. كان هذا قبل أن يسرق سمكها وغد من (البدرشين)..

(نجاة) تقول لي:

ـــ"تزوجني يا جابر .. سأكون خادمة تحت قدميك"

قلـــت لها إن الناس يجب ألا تتزوج إلا لكي تأتي للعالم بمن هو أفضل .. طفل أجمل منك .. أغنى منك .. أقوى منك ..

مـــا جـــدوى أن يتـــزوج الشقاء من التعاسة ؟.. الهباب من الطين؟..

ما الجديد الذي سنقدمه للعالم سوى المزيد من البؤس ؟

قلت لها إنهم في يوتوبيا يستحقون الزواج والإنجاب .. قالت إنهم فاسدون وأولاد كلب .. قلت لها إنهم هم من يحدد معنى الفاسدين ومن هم أولاد الكلب حقًا، لهذا من حقهم أن يتزوجوا وينجبوا ..

ـــ"كل من يملك عشاء ما بعد عامين من الآن يستحق أن يتزوج وينجب"

اسمها كان (نجاة)..

لها عين يمنى تالفة مثلي ..

هل وجدت معها متعة ما ؟.. لا أذكر .. فقط أعرف أنني أحتاج لها الآن ..

* * *

اسمها كان (عواطف)...

لماذا أتذكرها الآن ؟

عواطف كانت ممرضة قبل أن تتوقف رواتبهن وقبل أن يجدن أنه لا جدوى من العمل .. أكثرهن عملن كطبيبات يعالجن مقابل مال زهيد. ما كن يعالجن به هو خليط من الأعشاب والعسل والوصفات البلدية، وأحيانًا بعض الأدوية التي يروجها سكان يوتوبيا ولا يستعملونها أبدًا.. أحيانًا بعض الأدوية المهمة فعلاً ، تلك التي كان العاملون هناك يسرقونها لنا وتباع بثمن باهظ ، ومنها المضادات الحيوية والمسكنات.

(عواطف) تضحك .. (عواطف) تهتز .. (عواطف) تقطب.. (عواطف) تغمز .. (عواطف) تنتشي .. (عواطف) تتشاجر ..

(عواطــف) تــتلوى .. (عواطف) تهمس ... (عواطف) تبتسم .. (عواطف) تفكر ..

(عواطف) تعالج عيني ..

(عواطــف) تقول إنها تحب الرجل الذي يتشاجر ويفقد عينه من أجل امرأة ..

(عواطف) تقول إن من قابلتهم من رجال كانوا على استعداد للتضحية بها مقابل عقب سيجارة ..

(عواطف) تقول إنني رجلها ..

(عواطــف) تقــول إنني أذكرها بطبيب أحبته يومًا، ثم أدمن المورفين ومات بجرعة زائدة ..

(عواطــف) ســمراء جميلة .. كانت جميلة .. الجوهرة التي اعتــنت الطبــيعة بصقلها وتجميلها لتلبسها الأميرات، فسقطت في الــوحل .. الــتقطها كلــب أجــرب بــين أنيابه وراح يجري .. ويجري..

وأنا أطارد الكلب ليس من أجل الجوهرة ..

بل لأنني جائع .. والله العظيم جائع ..

-3-

الضربات تتطاير في كل صوب ..

ضـــربات .. طعـــنات .. ركـــلات .. بصـــقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

أنـــا ضعيف جدًا .. أنا لا أملك ما يمكنني من مواجهة موقف كهذا .. فقط أتظاهر بأنني أقاتل على طريقة (كداب الزفة)، لكني أعـــرف حـــدودي وأعرف أنني لهذا السبب بقيت حيًا .. يجب أن تلتصق بالعصابات .. تلتصق بالأقوياء الذين يأخذون ما يريدون.. يجب أن تكسب مودتهم وتقنعهم أنك ضروري لهم، لكن لا تلتصق بهم أكثر من اللازم فتفقد حياتك عندما يفقدونها ..

أنـــا جربت حظي مع البطش وفقدت قرنيتي. هذا يكفي المرء في حياة واحدة. لن تكون خسارتي قرنية وأنفًا أو قرنية وذراعًا .

ضـــربات .. طعـــنات .. ركـــلات .. بصـــقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

عندما أدرك أن كفتنا هي السفلى أقرر الفرار ..

أســـتدير وأنسى كل شيء عن لحم الكلب المشوي .. أثب إلى قضيب المترو وأركض في الظلام.

لو حالفني الحظ لوجدت الممر الذي يقودني إلى الخارج.

هناك من يصرخ من خلفي:
ـ"انتظر !"
لا أعــرف هل هو من رفاقي يلومني على نذالتي، أم هو من أعدائــي يريد أن يلحق بي لينتزع عنقي. سيان .. فقط أنا أركض ولا أنظر إلى الخلف ..
في يوتوبيا لا يأكلون الكلاب .. يربونها للتدليل وللحراسة ..
كنا مثلهم يومًا ما، ثم تعلمنا انها مصدر رخيص للبروتين. لو حــدثت الثورة يومًا ما فلسوف نبدأ بالتهام كلابهم المدللة السمينة كلها.
هذا هو الممر .. أركض فيه وأتعثر. لقد فقدت المشعل لكني احفظ طريقي على كل حال.
هناك ملصق قديم لأحد أجهزة المحمول .. عرض خاص من شــركة ما .. كان هذا عندما كانت هناك شركات محمول قبل أن يســتولي عليها جميعًا (منصور بيه) ملك الاتصالات، وبالطبع لم يعد أحد يهتم بأن نستعمل هذه الأجهزة على الإطلاق، لكن الشبكة تغطي هذا الجزء من مصر على كل حال..
هناك ملصق آخر عن السمن ..
هــناك ملصق عليه فتاة حسناء شبه عارية قام احدهم بتشويه ملامحها وتسويدها .. يومًا ما فعل أحدهم هذا وزعم أنه فعله من أجــل الحفــاظ علــى الأخلاق. الحقيقة أنه اغتصاب رمزي لتلك الحســناء، لكــن الحرمان الجنسي لم يعد من مشاكلنا اليوم (وهذا غــريب) .. مع كل هذا الفقر انهار حاجز الأخلاق وصار الجنس

أسهل شيء يمكنك الحصول عليه.. الجنس مقابل أجر تافه فإن لم يكن فهو الاغتصاب ..

لكنني برغم هذا ظللت أصبو لشيء آخر .. أصبو لما بعد الجنس .. الشيء الذي يجعلك بعد إفراغ شهوتك تظل جالسًا جوارها تصغي وربما تربت على خدها الأسيل بأناملك .

عاطفة غامضة لن أطلق عليها اسم الحب . لست بهذه السذاجة والغنائية .. سوف أطلق عليها اسم (ما بعد الجنس)...

(عزة) .. (عواطف) .. (نجاة)..

أفتح الباب الحديدي . أخرج إلى الهواء الطلق والظلام ..

أغلق القفل بعناية كي لا يتسلل واحد آخر. هؤلاء في أنفاق المترو يمكنهم العناية بأنفسهم ويعرفون كيف يخرجون ..

لقد نجوت بأعجوبة ..

لكني جائع ..

فيما بعد عندما التقط أنفاسي سوف أعرف إن كان من حسن حظي أن بقيت حيًا جائعًا، أم كان من الأفضل لي أن أموت في نفق المترو المظلم.

لا اعرف .. لا أقدر على الموت .. انا بكتريا مرغمة على الحياة مهما حدث لها ..

على الأقل هناك (صفية). أختي ...

ثمة شيء واحد في حياتي ظل نظيفًا أو نجحت في أن أجعله كذلك.. رأيت ذات مرة في فيلم غربي في تلفزيون القهوة فارسًا

نبـيلاً يمشـــي مع امرأة فيرى بركة وحل .. عندها نزع معطفه وألقاه على الأرض لتمشي عليه فلا يتسخ حذاؤها ..

مـــع (صــفية) لم ألعب دور الفارس .. لعبت دور المعطف ذاته..

لهـذا أنــا حـــي .. لن أموت وأترك (صفية) تسرق أو تهز ردفـيها بائعــة السلعة الوحيدة التي تملكها .. لن أموت وأتركها للنســاء يخمشـــن وجههـا ويطلقن عليها نعوتاً قذرة .. لن أموت وأتركها تجوع ..

لن أموت وأتركها تحيا بلا حياة ..

* * *

كشــف المرصـــد الصـــحفي بملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان عن ارتكاب (172) جريمة عنف ضد النساء وذلك خلال الفتــرة مــن 30 يونـــيو حتى 25 ديسمبر 2005 ، وقد كشفت الدراسة من واقع ما تم رصده الآتى :-

- 150 جريمة قتل بينهم 6 جرائم اقترنت بالذبح، 3 جرائم اقتـــرنت بحرق الجثث، 3 جرائم اقترنت بتمزيق الجثث وعدد 2 جريمة أجبرت الضحايا على شرب السم، وجريمة واحدة تم قتلها بإغـــراقها في مياه الترعة. وأخيرا عدد 4 جرائم قتل غير متعمد لقيام الزوج بالعبث في سلاحه الناري . - 13 جريمة شروع في قتل و9 جرائم اعتداءات بالضرب.

جـــاء الدافع لارتكاب تلك الجرائم : بسبب الشرف: هروب الـــزوجة - خـــيانة الـــزوجة - الشك في سلوكها - الغيرة (70)

جـــريمة، تردى الأوضاع الاقتصادية: مصروف المنزل – ياميش رمضان – نقل ملكية سيارة – النزاع على ميراث (39) جريمة ، خلافـــات أســـرية : رفض خطبة أو زواج – التأخر في إعداد الطعـــام – خلافات بين الزوجة وأسرة الزوج – إهانة الزوج او صـــفعه – إنجاب إناث – مطالبة الزوج بالطلاق(44) جريمة ، وكـــان العنف بسبب الدجل والشعوذة: إخراج جان وعفاريت من جســـد الـــزوجة (3)جرائم ،وجاء عدد الجرائم بسبب الفشل في محاولـــة اغتصـــاب الضحية (6) جرائم ، فيما كان القتل بسبب الاســـتيلاء علـــى أموال الضحية (7) جرائم ، وأخيرا قتل غير مـــتعمد: عـــبث بسلاح ناري، دفع الضحية أثناء المشاجرة (9) جرائم .

مـــن حيث القائم بالجريمة: ارتكب الأزواج عدد (146) والأشقاء والأقارب (17) وعدد (9) جرائم لم يكن هناك صلة بين الضحية والجاني .

تـــوزع الـــنطاق الجغرافـــي لمكان وقوع الجرائم كالآتى :– محافظة القاهرة شهدت عدد (48) جريمة ، الجيزة (23) ، قنا (11) ، سوهاج (16) ،المنيا (5) ، بور سعيد (4) ،السويس (5) ،كفر الشيخ (3) ،الغربية (6) ،البحيرة (3) ، دمياط (3) المنوفية (9) ،القليوبية (8) ،الإسكندرية (13)، الإسماعيلية (5)، المنـــيا (4) جـــرائم ، فـــيما لم يذكر محررو الخبر مكان وقوع (6) جرائم .

تمـثلت الأداة المسـتخدمة فـي ارتكاب تلك الجرائم في :- أسـلحة بيضاء (سكين - ساطور- مطواة)أسلحة نارية (مسدس - بندقـية) ماء نار ،فئوس - شاكوش - شوم - عصى- حبال - قطـع خشب ،شريط لاصق - كي بالنار - مفتاح إنجليزى - ماسورة حديدية ، القتل بالخنق .

علـى أسـاس المستوى التعليمي: كان هناك 11 من حملة المـؤهلات العليا، (3 ا) طالبًا بالثانوى والجامعة ،غير متعلمين 32 فيما كان هناك (116) جريمة لم تتوصل الدراسة للمستوى التعليمي لمرتكبيها لإغفال محرر الخبر ذكره .

* * *

الأرقام لا تكذب ....

من بين كل مائة جريمة عنف ضد النساء تقتل 85 امرأة..

من بين كل مائة امرأة قتيلة هناك أربع يذبحن كالشياه واثنتان تحرقان ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أنا رأيت كل شيء يتهدم ..

أنذرتهم ألف مرة، لكنهم لم يصدقوا أو صدقوا ولم يبالوا ..

أحيانًا أشعر أن المصريين شعب يستحق ما يحدث له. شعب خنوع فاقد الهمة ينحني لأول سوط يفرقع في الهواء.

في الماضي عندما كنت أتفلسف قلت لأحد أصدقائي:

ــــ"لقد جمع (بلفور) اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."

سألني في غباء عمن هو (بلفور) فقلت:

ــــ"هــو رجل جمع اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."

بدت عليه الدهشة وهتف:

ــ"يا سلام .. !... رجل جمع اليهود في وطن واحد ؟"

واصلت كلامي:

ــــ"اعتقادي أن هناك وعدًا آخر .. ثمة شخص جمع الأوغاد والخاملــين والأفاقــين وفاقدي الهمة من أرجاء الأرض في وطن قومــي واحد هو مصر .. لهذا لا تجد في اليابان فاقد همة .. لهذا لا تجد في ألمانيا وغدًا .. لهذا لا تجد في الأرجنتين أفاقًا .. كلهم هنا يا صاحبي !"

هتف في دهشة وهو يطلق أبخرة الحشيش:

ــ"يا سلام .. هناك من وعد الــ ...."

ثم لم يستكمل العبارة لأن رأسه مال على صدره ونام .. خيط لعاب يسيل على ذقنه ..

كنت أقول لهم:

ــــ"هأنــتم أولاء يــا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلــون الكــلاب !.. لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات (مالــتوس) و(جمــال حمــدان) ونــبوءات (أورويل) و(هــ .ج. ويلــز).. لكــنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتــنامون ... الآن أنــا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالــي، وبــين الشــماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي

عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغنـــي عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيرًا حتى لو كانت هذه آخر نشوة له .. إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !"

لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق ..

لا يهتمون البتة ..

إنهـــم يبحـــثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه ..

إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !

-4-

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

إنـــه يغطـــس فـــي المجاري ليقوم بتسليكها، برغم أن شبكة المجـــاري هناك جيدة ويقومون بصيانتها بعناية. يجب أن أقول إن تلـــك المجتمعات المغلقة لها خدماتها الخاصة المستقلة. بالنسبة لنا لـــم يعـــد هـــناك ما يدعى مجار .. نحن نتصرف .. تعتمد معظم البـــيوت على (الترنشات) وهناك عربة تكسح هذه ثم تتخلص منها فـــي موضع غير بعيد. بعض الناس بلا بيت أصلاً لذا لا تشكل له المجاري مشكلة .

من المسلي أن تلاحظ إلى أي حد انكمشت احتياجات المرء.. فـــي البدء كانت هناك شقق بها أجهزة هاتف وثلاجات وتلفزيون وحمامات .. لهذا كان الناس دائمي الشكوى من حياة الكلاب التي يـــرغمون فـــيها على مشاهدة برامج تلفزيونية سخيفة، مع انقطاع الكهـــرباء، وانقطاع اتصال الهاتف ، وانقطاع المياه .. عندما تفقد هـــذا كلـــه لا يعود هناك مصدر للشكوى .. هذا نوع خاص من الكارمـــا كمـــا ترى . عندما لا تكون هناك كهرباء فهي لا تنقطع أبدًا.

فلتزأر العاصفة .. فلتزأر العاصفة ..

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..
(صفوت) غواص مجار في يوتوبيا ..
(صفوت) يقرأ الجريدة ويقول لي:
ـــ"سوف يلغون الجمارك على الأخشاب المستوردة من الاتحاد الأوروبي.."
ثم ينظر لي في حيرة ويسألني:
ـ"هل هذا مفيد ؟.. ولمن ؟"
أقول له خلاصة فلسفتي التي كونتها طيلة هذه السنين:
ـــ"لا أفهم معنى هذا لكنه مؤذ لنا وخلاص .. أي قرار يتخذ في أي وقت هو ضدنا .."
(صفوت) يبدي علامات الفهم ..
(صفوت) على علاقة بخادمة. يبدو أنها مصابة بفقدان الشم أو زكام. وهذه الخادمة كانت تجلب له الفلوجستين. مخدومها لا يبالي بهذا السائل الثمين ويضعه في أي مكان .. وكانت هي تسرق قطرات من الزجاجة تجلبها لـ (صفوت)، و(صفوت) كان يأتيني بها ..
فيما بعد أضيف بعض قطرات الليمون على السائل لتعطيه تلك الرائحة وتلك الوخزة الباردة عندما تضعه على جلدك .. يتحول السنتيمتر إلى خمسة سنتيمترات، وهذه أبيعها بسعر باهظ لشبابنا . وعندما يشكون من أنهم لا يرون النيران الخضر أقول لهم في غضب:

ـ" لقد فتك الإدمان بأعصابكم يا أولاد الـ (...).. لم يعد من شيء قادرًا على أن يسطلكم سوى سكرات الموت ذاتها .. "

هكذا يخرسون .. فكلامي لا يخلو من صحة ..

غش ؟.. وما في ذلك ؟.. أفضل الغشاشين طرًا هو من يغش المخدرات .. هذا رجل قديس يعمل لمصلحة الناس في رأيي.. إنه مصلح اجتماعي ينعم بالمال !.

* * *

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

وقد كنت في انتظاره لدى العودة من هناك ..

منذ اللحظة الأولى ترجل هذان فشعرت بأنهما غريبان ..

لا أعـرف كل واحد في المنطقة، لكني بالتأكيد أعرف البؤس والشقاء عندما أراهما .. أعرف الجوع .. أعرف الوهن .. قابلتهم كثيـرًا جـدًا حتـى صرت أعرفهم من بعيد بسهولة تامة ومهما تنكروا ..

هنا رأيت بؤسًا وشقاء وجوعًا غير أصيلين ..

رأيـت خـوفًا وهذا غير معتاد .. في عالمنا لا ترى الخوف كثيرًا إنما هو نوع من استسلام للمصير وقنوط ..

وقفت من بعيد أراقبهما ..

رأيـت الدهشة .. رأيت الاشمئزاز .. رأيت التقزز .. رأيت التوجس ..

هـذه جمـيعًا عواطـف دخيلة على عالمي .. لا احد يشمئز عـندنا.. لا أحـد يندهش .. أي طفل في التاسعة رأى كل شيء

وجـــاع كثيرًا جدًا، وغَالبًا قد اغتصب ثلاث أو أربع مرات، لهذا تـــرى على وجهه علامات من رأى كَل شيء كأنه عاهرة عجوز مجربة

قلت لنفسي إن هذين ليسا من هنا .. ليسا من الأغيار ..

فلتقطع ذراعي إن لم يكونا من يوتوبيا ..

رأيت الفتى يمشي مع الفتاة وسط الزحام وأبخرة العرق ..

توقف عند .. عند (سمية)..

إنه يتفاوض معها ..

ذوقه رديء جدًا .. (سمية) أقبح الفتيات هنا وهي أقرب إلى ذكر مكتمل الرجولة، دعك من أن عمها هو (السرجاني) ذاته !.. السرجاني الذي أطار قرنيتي ..

ومـــن عجائب المصادفات أن السرجاني فقد عينًا – أو قرنية – فـــي مشاجرة ليست بالبعيدة جدًا. لم تعد علاقتنا سيئة جدًا كما كانت لكننا نتحاشى المواجهة .. فقط نتبادل النباح من جديد عندما نرى بعضنا ..

لم يكن بلطجيًا .. إنه قواد .. صحيح أن جسده يوحي بالمهنة الأولـــى لكن دعني أؤكد لك إنه قواد .. لا يبيع قوة جسده وبطشه ولكـــن يبـــيع نساءه. بضاعته الوحيدة هي (سمية) وبالطبع لم تكن رائجة جدًا ..

هـــذا الفتـــى الأحمق اختار (سمية) وبهذا صار تحت رحمة السرجاني .. يمكنه أن يعمل أي شيء .. يهدده بالسنجة ويأخذ كل شـــيء معه، أو يتهمه بالاعتداء على شرف الأسرة – على طريقة

(ستيفان روستي) في الأفلام القديمة – ويرغمه على قبول أي شرط مجحف ..

السؤال الأهم هنا: ما دور الفتاة التي معه ولماذا لا يكتفي بها ؟.. هل هي أخته ؟.. من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أخته ؟.. بل من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أية أنثى أخرى ؟

على كل حال قد أخذ الفتى (سمية) ودخل بها إلى الخرائب ..

لن يتحرش به أحد . هي تحميه .. فقط لو صرخت أو استغاثت أو أصابها مكروه فلسوف يتحول إلى شرائط ... سوف يمزقه الفتية الموجودون في الخرائب يتعاطون الكلة، إلى أن يصل عمها لينهي عملية السلخ..

كان الفضول يستبد بي كي أعرف أكثر، لذا نسيت كل شيء عن (صفوت) وما يحمله، ورحت أشق طريقي وسط الخرائب بحثًا عن (سمية) وزبونها ..

على الأرجح سوف تواجه الفتاة التي معه المشاكل.. أنا لا أطيق أن أرى فتاة في مأزق، لأن هذا يذكرني بـ (صفية)...

أعتقد أن بوسعي أن أنقذها لو حدث شيء ..

لست قويًا لكنني ذو شعبية، كما إنني من شلة (عبد الظاهر) وهو يفرض على حمايته . أي اعتداء علي هو اعتداء على الأخير، وهذا ليس أمرًا هينًا ..

كنت أقف هناك في الظلام، عندما فوجئت بمنظر غريب .. الفتى يهوي على عنق (سمية) بسيف يد فتهوي كجوال ثقيل على

الأرض. لــم يكــن يــريدها كامرأة .. كان يريد إيذاءها لسبب لا أعرفه ..

أو ربما أعرفه !

لكنه غبي فعلاً... السرجاني لا يترك سمية تغيب عن عينيه، وبالتالــي لابد من واحد يراقبها من بعيد ليضمن أنها لن تهرب أو تأخــذ المزيد من المال من الزبون .. هكذا عرفت أن النبأ وصل إلى السرجاني بسرعة البرق ..

عشــرة مــن شبابنا يركضون في الظلام .. يثبون فوق بقايا الجدران المتهدمة والقرميد وأكوام القمامة .. يثبون فوق الصخور .. يثبون فوق اللحظة ...

إنهم يحيطون بالفتى وفتاته بينما تكومت (سمية) على الأرض لا تعرف ما يدور هناك ..

وصاح (سوكة) بصوته الحلقي الغليظ:

ـ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

[illegible]

السؤال الأهم هنا: ما هو [illegible] الفتاة التي معه [illegible]

[illegible]

ليس [illegible] أحد [illegible]

[illegible]

[illegible] (صفية) [illegible]

[illegible] الأرجح [illegible] الفتاة التي معه [illegible]

يشق لي أن أرى فتاة في مأزق، لأن هذا يذكرني بـ (صفية)..

أعتقد أن بوسعي أن أنقذها لو حدث شيء..

[illegible] (عبد الظاهر) [illegible] على [illegible] على

أحد، وهذا ليس أمرًا هينًا..

كنت أقف هناك في الظلام عندما [illegible]

[illegible] (صفية) [illegible]

الجزء الثالث

الصياد

-1-

الحقــد فـــي العــيون كان واضحًا جليًا .. ذات النظرة التي ظهــرت فـــي عــيونهم وهم يهدمون (الباستيل).. هم ذاتهم .. إن للرعاع جنسًا وشكلاً موحدين مهما تباينت بلدانهم ولغاتهم .. وفي الأيــدي التمعت نصال لا تنتمي للمدي إنما هي أجزاء من هياكل ســيارات تــم تحويلها لأدوات قتل ..هناك ماسورة مياه أو اثنتان على طريقة عصابات (نيويورك)..

ارتجفت جرمينال والتصقت بي .. لن نفلت من هذا ..

وشــعرت بــيد تفــتش جيبــي في غلظة، ثم خرجت حاملة الموبايل ..

عــيونهم تحتشــد على الجسد الراقد على الأرض .. الرسالة واضحة تمامًا وقد فهموها:

ـــــ"إنهم يخطفون أي واحد منا يجدونه ليتسلوا به عندهم، ثم إنهم يقتلونه !"

أدركت أن الضربة الأولى هي التي ستفجر السد بعدها تنهال الضــربات .. فقــط من يبدأ بها ؟.. وداعًا جرمينال.. كانت حياة مملــة بــرغم كــل شــيء .. ربما كان الخلاص منها نوعا من التغيير..

ـ"لا تؤذوهم يا شباب .. إنهم أبرياء .. أنا رأيت الفتاة تسقط ولم يلمسها أحد.."

كـان هذا أحدهم يتكلم في حزم.. لم أتبين ملامحه لأن عيني كانت تنظر إلى الموقف لا الأشخاص ..

قال أحدهم:

ـ"أنا رأيته يضربها يا جابر"

قال منقذي الغامض:الذى صار(جابر)

ـ"أنت لا ترى شيئًا يا بن الـ (...).. لقد أطارت الكلة عقلك وأعمتك"

ثم همس في أذني:

ـ"هل معك فلوجستين ؟"

ترددت فهمس:

ـ"إما هذا وإما أن ترى أذنيك على الأرض بعد لحظة !"

مـددت يـدي إلى جوربي وأخرجت الزجاجة الصغيرة التي تشـبه أمبولاً يتم لصقه إلى الكاحل بشريط، فاختطفها مني ولوح بها أمام العيون:

ــ"هـل تعرفون هذا ؟.. (فلوجستين) !.. من لم يجربه بعد فليعـرف أنه شيء يختلف كلية عن (الكلة) والبانجو والصراصير .. خـذوه وجربوا .. نقطة واحدة على الساعد ..لا تكثروا منه يا أولاد البلهاء فقد رأيت من يموت في ثوان لأنه وضع نقطتين"

يبدو أنهم كانوا جميعًا يعرفون ما يتكلم عنه ..

علـــى الفـــور نسَـــوا كـــل شيء عن الانتقام، وانقضوا على الأمبول وراحوا يتبادلون الشتائم البذيئة .. فجأة لم يعد لنا وجود..

أحـــدهم حـــاول أن يـــركض بالأمبول فوضع آخر ساقه في طـــريقه فسقط .. انقض على الأمبول ونزعه فقط ليغرس أحدهم إصـــبعيه فـــي عينيه .. هنا انقض أحدهم يعض مؤخرة هذا الذي غـــرس إصـــبعيه .. فـــي هذا الوقت كان الذي سقط قد هب على قدميه وركل من يعض المؤخرة في وجهه .. كتلة أجساد تتصارع فـــلا تعرف أبدًا من أين يبدأ هذا وينتهي ذاك .. من المغلوب ومن الغالب ؟

لـــم يسأل أحدهم عن كيفية حصولي على هذه الكمية .. لابد مـــن التعاطي أولاً ثم الفهم بعدها .. فقط الحمقى هم من يتوقفون أمام الفلوجستين ليتساءلوا عن مصدره ..

لـــو توقفـــوا لحظة لأدركوا أن وجود الفلوجستين معي يؤكد التهمة ..

صاح جابر في الجمع الذي لم يعد يسمع ولا يرى:

ـــــ"إنهمـــا لصـــان !... لقد سرقا هذا الفلوجستين من كلاب يوتوبيا !"

كأنه يمنحنا بهذا صك غفران !

هنا رأيت ذلك العملاق القواد قادمًا من بعيد وهو يلوح بسيفه مطيـــرًا رقابًا وهمية، بينما تنطلق منه قذائف من الشتائم .. شتائم لا يمكن التلميح لها هنا ..

كان قادمًا نحونا وهو يرغي ويزبد، هنا ابتدره الفتى صائحًا:

ـ"فلوجستين يا سرجاني !... فلوك !... فلوك !"

لـــم يخفــف الرجل من سرعته إنما غير مساره بعد ما كان مـــتجهًا مباشـــرة نحوي، ليندفع نحو المتقاتلين .. لم أفهم ما حدث لكنـــي متأكد من أنه هوى بسيفه عليهم .. يبدو أن استيعاب هؤلاء القوم سريع جدًا، وترددهم معدوم . الصقر الذي لا يجد وقتًا ليفهم ما يدور هنا، ولكنه ينقض ثم يفهم ..

أشار لنا الفتى منقذنا من طرف خفي لنبتعد فجرينا وراءه .. لو لم نثق فيه فبمن نثق ؟

* * *

كشف الدكتور أحمد عكاشة في أحد المؤتمرات عن أن هناك فـــي مصر أكثر من مليوني مدمن, و12 ألفاً يتعاطون الهيروين, وملـــيون يـــتعاطون مخـــدرات أخرى كالبانجو وأبي صليبة في المـــرحلة العمرية من 12 إلى 19 عاما.. يتصدر البانجو القائمة ويلـــيه الحشيش .. يعرف الباحثون جيدًا أن المخدرات وراء تزايد معـــدلات الجريمة في مصر من خطف واغتصاب السيدات وقتل الآبـــاء, وأنها تستنزف سنويا ما لا يقل عن مليار جنيه من تكلفة المكافحة والتهريب.

* * *

وســـرعان ما كنا في مكان ما من هذه الخرائب .. ثمة كوخ صـــغير مكـــون من قطع خشب وأجزاء مفككة من هيكل سيارة وصحف وأشياء غريبة جدًا.. أزاح قطعة من المشمع لندخل ففعلنا هذا مجبرين ..

كانـــت حالـــة الكوخ من الداخل أسوأ .. هناك إطارا سيارة يســـتعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير وهناك أكوام من الكتب لم أر مثلها في حياتي ..

الدلـــيل الوحـــيد على وجود كهرباء يأتي من مصباح واهن يتصـــل ببطارية سيارة عتيقة . وقد تم تعليق سلك المصباح على عصـــا تبـــرز من الخشب .. إضاءة لعل الظلام منها افضل منها وأكثـــر بهجة .. إضاءة سقيمة .. إضاءة خلقت كي تنطق كلماتك الأخيرة فيها قبل أن تخرج الرغوة البيضاء من فمك وتموت ..

للمرة الأولى أتمكن من تفحص ملامح هذا المنقذ .. كان في الثلاثين من عمره نحيلاً منكوش الشعر تبدو عليه بوضوح سمات ســـوء الـــتغذية، لكـــنه قوي البنيان كالذئاب. وعلى أنفه نظارة تم لحامها بالنار ألف مرة، ومن تحتها وجه امتلأ بالخياطة كأنه وجه المسخ في أفلام (فرانكنشتاين) .. لاحظت كذلك أن له قرنية ذابت وتحولت إلى عجينة بيضاء .. قلت له:

ـــ"شكرًا على إنقاذنا .."

قال وهو يزيح بعض المهملات ليسمح لنا بالجلوس:

ـــــ"اســـمي (جابر).. لا شكر على واجب ..أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعًا للفوز بتذكار فريد ! .. أنتما من يوتوبيا طبعًا !"

ـــ"لا .. لسنا من .."

نظر لي في حدة بعينه التي تحولت إلى عجين وقال:

ــ" لا تحاول خداعي .. كلنا يعرف ما يفعله اللصوص عندما يتسللون لنا .. ومتى فرغوا من مهمتهم جاءت طائرات المارينز لتنقذهم مع صيدهم .. ماذا يقول لك أبوك عندما تعود له بواحد منا؟.. (كخ) ؟.. عيب ؟ .. يا للقسوة !"

نظرت إلى جرمينال فنظرتْ لي ..

شعور بعدم الراحة يغمرنا .. نحن لم نخدع أحدًا. الآخرون كانوا سيمزقوننا في الحال، أما هذا فيدخر لنا مصيرًا لا أعرف ما هو لكنه بطيء .. بطيء وكل ما هو بطيء قاس ...

ــ"ما اسمك ؟"

قلت بلا اكتراث:

ــ"علاء"

ابتسم في خبث وقال:

ــ"طبعًا لو حسبت أنني سأصدق لحظة واحدة أنك علاء فأنت ترى في وجهي غباء، لكن لا يهم .. لا قيمة للأسماء إلا في جعلك تعرف أنني أوجه لك الكلام .. سنفترض أنك علاء ولتكن هي مها .. علاء ومها .. جميل .. هل أنتما أخوان ؟.. سأفترض هذا كذلك .. لكن لو لم تكونا أخوين فلتعلما إنني لن اسمح بأي شيء تحت سقف بيتي أو تحت قماش عشتي، لأنني لم آت بكما لهذا الغرض، ولا أعيش وحدي"

سمعنا حركة ودخلت الكوخ فتاة في العقد الثاني من العمر .. يبدو أنها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفي أي حسن .. القذارة جعلت ثوبها صلبًا لا يرف ولا يهتز كأنه من جلد مدبوغ.. نظرة

الحيوان الخجول الوجل المتواري في الدغل تبدت في عينها عندما رأتنا .. فيما بعد عرفت أن هاتين العينين تنطقان بكل شيء كأنهما متصلتان بالروح مباشرة ...

قال لها باسمًا:

ـــــ"هذه أختي .. تعالي يا (صفية).. كنت تسألين عن منظر هــؤلاء الأثـــرياء الذين يقيمون في مستعمراتهم الخاصة .. هذان منهما !... "

نظـــرت لنا في عدم فهم .. نحن نبدو في حالة أسوأ منها .. قال الفتى:

ـــــ"هذا لزوم التنكر .. نوع من الشحم الذي يضعه الممثلون على وجوههم.. لقد جاءوا ليظفروا بواحد منا يتسلون به .."

وبدأ انفعاله يتزايد رويدًا رويدًا كأنه يبصق الحقد الذي يتراكم فوق روحه:

ـ"لماذا لا تتركوننا وشأننا ؟.. سرقتم منا الماضي والحاضر والمستقبل .. لكنكم تكرهون أن تتركونا نعيش .."

وقــبل أن أفهــم مـــن أين جاء ولا متى وجدت نصل سيف عملاق تحت ذقني .. ومن بين أسنانه الصفر قال:

ـ"هل ترى أن آخذ منك تذكارًا كما تفعلون معنا ؟... إن أذن فــتاة ســتكون تذكارًا ممتازًا .. أذن دقيقة حمراء نظيفة .. سوف يحسدني الجميع عليها وربما اقترضوها مني .."

ثم انفجر في ضحك وحشي .. ضحك وحشي .. وحشي ..

ظللنا صامتين.. كنت حائرًا بين إظهار الخوف فأشعل ساديته أكثـــر، أو إظهـــار اللامبالاة فأثير غيظه وجنونه .. النتيجة إنني ظللـــت أرقب وجهه بوجه كالصخر ليس عليه أي تعبير. ونظرت لجــرمينال بطرف عيني فوجدت أنها على الأرجح قررت الشيء ذاته ..

في النهاية هدأ .. فقال للفتاة:

ـ"أعدي لنا شيئًا يؤكل .."

* * *

كان اسم صاحبه (عزوز)..

ضـــخم الجثة له عين يسرى ترفَ طيلة الوقت . كأنه يتوقع الشؤم منذ ولد ..

عزوز دخل الخرائب ليقضي حاجته في تلك الليلة عندما ظفر به ثلاثة من يوتوبيا .. اضطروا لقتله عندما لم يتمكنوا من خطفه. ثلاثة فتية أقوياء البنية في عيونهم قسوة وبرود وتعال..

لم يعرفوا هنا ما حل به إلا عندما رأوا طائرة المارينز تحلق فوق الخرائب، وكشافاتها الساطعة تمسح المكان. عندها عرفوا أن أحدهم سقط ..

راح الـــناس يقذفون الهليوكوبتر بالحجارة، وأخرج (مرسي) المسدس الذي قام بصنعه بنفسه في ورشة خراطة، وأطلق طلقتين على الطائرة ..

ارتفـــع الوحش المزمجر وهو يصوب كشافاته في كل اتجاه، ثـــم هبط قليلاً، وأمكنهم أن يروا جندي المارينز الجالس على باب

الطائـــرة المفتوح وقد وضع البندقية الآلية بين فخذيه، وراح يطلق الرصاص بلا تمييز على جموع الغاضبين ..

سقط كثيرون .. سقط (مرسي) ذاته ..

والطائـــرة تدخل إلى الخرائب، ثم يتدلى منها سلم من الحبال .. يتســـلق الفتية الثلاثة السلم وهم يصرخون صرخات وحشية، ثم ترتفع الطائرة ..أولاد الكلب حسبوا أنهم يمثلون فيلمًا أمريكيًا عن حــــرب فيتــــنام .. الفتـــية صاروا داخل الطائرة وهم ينظرون من أعلـــى إلـــى الجمـــوع الغاضبة .. أحدهم لوح بشيء دام في يده وأطلق سبة بذيئة ..

هـــرع (جابر) إلى حيث كانت جثة مرسي والتقط المسدس .. ثـــبت يده اليمنى باليسرى وأحكم التصويب، لكن الطلقة التي دوت لم تجرح أحدًا. فقط آلمت ذراعه بشدة ، وتردد صداها على مدى دهور..

وابتعدت الطائرة ..

هـــرع الجمـــيع إلى الخرائب على ضوء المشاعل .. وهناك جـــوار جدار وجدوا جثة عزوز وقد مزقتها الطعنات. فقط لم يكن لــــه ســـاعد .. لقـــد تعب فتية يوتوبيا كثيرًا حتى انتزعوه، ومن الواضــــح أنهـــم لا يملكون خبرة الجزار في التشريح . لكن لو لم يأخذوا تذكارًا لما صدقهم أحد في يوتوبيا عندما يعودون ..

ابتعدت الطائرة ...

لكنها تركت المزيد من الحقد الأعمى الأسود الذي لا يجد قناة ليسيل فيها ...

أقسم أخو (عزوز) الذي لم يكن يطيق أخاه وهو حي، ليقطعن ساعد أي واحد من قوم يوتوبيا لو سقط في يده .. الجديد في الموضوع هو أنه سيفعل هذا بأسنانه وليس بالسكين ..

الفرصة لم تأت، وإن ظل الجميع ينتظر في شغف ليرى كيف يحدث هذا ...

يعرفون أنه سينفذ انتقامه حرفيًا، ولكن مع أي واحد تعس من الأغيار يقع تحت يده في المشاجرة القادمة. هناك من سيفقد ساعده لأنه نافس (عزوز) على بقايا رغيف.. هذا مؤكد ..

هذا ما حكاه لنا جابر وأنا قبل أي واحد آخر أعرف أنه صحيح ..

-2-

والآن يا صغيرتي انظري لي واتلي صلاتك الأخيرة ..
إن عناقي المشبوب سوف يهشم ضلوعك .. سوف أعتصر روحك ذاتها ..
عندما تصعد إلى السماء مهشمة تستند على عكازين ..
سوف تسألها الملائكة عما حل بها ..
ستقول: لقد نمت مع الشيطان ذاته ..
الشيطان الذي أثملته صرخات العذارى قبل الذبح ..

من أغاني الأورجازم

* * *

الطعام الذي أعدته لنا (صفية) هذه كان خليطًا من الفول والطعمية طعام الأغيار المقدس .. أحيانًا نأكل هذه الأشياء طبعًا على سبيل التغيير لكن ليس بهذه الطريقة !.. بقايا أوشكت على الفساد من عدة وجبات سابقة قامت بخلطها وتسخينها على الموقد، ثم صبت على الخليط زيتًا وملأت قبضتها بالتوابل ونثرتها على الطنجرة..

قال (جابر) مفسرًا:

ــــ"نحن نكثر من التوابل لأنها تخفي طعم أي شيء .. تخفي طعــم الدجاج الفاسد والفول الحامض والبيض الممشش ...التوابل هـــي السلعة الوحيدة التي لم يزدد سعرها لأنها ضرورية كي نبقى أحياء .."

وناولنــــي طبقًا وآخر لــ جرمينال.. ثم ناولته الفتاة قطعة من خبز مسود فاحتفظ بها لنفسه ..

كــنت قــد أكلت الفول من قبل كما قلت .. إنه يساعدك على التغييــر عندما تمل إفطارك المعتاد، لكن جهازنا الهضمي لم يعد يــتحمله .. لهــذا أحجمت عن الأكل لأني لا أعرف كيف سيكون قضاء الحاجة عندهم . لا أعني أنني لا أعرف .. بل لا أريد ..

قال وهو يقلب الملعقة في طبقه:

ــــ"بالطــبع لا تفهمان شيئا عن الوضع الذي صرنا إليه .. لكنـــي أكره ألا أخبركما بكل شيء .. الصورة التي تريانها كانت موجــودة مــنذ الــبداية لكن بشكل غير واضح، ثم تضخمت شيئًا فشــيئا ... يصــير الأغنــياء أغنى والفقراء أفقر، ثم تأتي لحظة يحــدث فيها الانهيار.. ويبدو لي أن هذا حدث في العشر السنوات الأولـــى من هذا القرن .. فجأة انهار السد .. لم تعد السياحة قادرة علـــى إطعـــام هذه الأفواه .. إسرائيل افتتحت قناتها التي صارت بــديلاً جاهزًا لقناة السويس .. الدول الخليجية نضب بترولها أو تم الاســتغناء عـــنه بعد ظهر (البايرول)، وطردت العمالة الوافدة .. هكـــذا وجد الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا، وانعدمت الخدمات للفقراء لأن الدولـــة أعفـــت نفسها تمامًا من مسئوليتهم، وخصخصت كل

شــــيء .. لم تعد هناك حكومة أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا .. مــــع الـــوقت تـــوقفت الرواتب وتوقفت الخدمات وذابت الشرطة وبالتالــــي لم تعد علينا ضرائب... كان آباؤكم من طبقة استطاعت أن تســـتخدم نفـــوذها للإثراء .. حسابات مصرفية في الخارج .. قـــروض من المصارف .. احتكار .. كل شيء كان في مصلحة آبـــائكم وضدنا على طول الخط .. هكذا استطاعت هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء بينما هوينا نحن إلى الحضيض .. لكن الحياة معـــنا صــــارت أمـــرًا مستحيلاً... اضطرت هذه الطبقات إلى أن تعـــزل نفســـها طلـــبًا للأمـــان في تلك المستعمرات على الساحل الشـــمالي، وقـــد استعملوا رجال المارينز لأنهم يضمنون ولاءهم بيـــنما لا يضمنون ولاء البودي جارد المطحون بدوره .. إن فكرة أن يثور محيط الفقر هذا كانت تؤرقهم .. كل الثورات الشعبية في الـــتاريخ بدأت بذبح الأثرياء .. هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كـــل شيء والآخر لا يملك شيئًا .. أهمية المجتمع الثاني لا تزيد علــــى كونه سوقًا استهلاكيًا لا بأس به .. حتى لو كان يعاني الفقر فـــإن كثافـــته السكانية تسمح بكل شيء .. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرًا ..."

ثم توقف عن الأكل وسألني:

ـــ"هل لديكم إسرائيليون في يوتوبيا ؟"

قلت في دهشة:

ـــ"كثيرون .. أعز أصدقائي منهم .."

قال وهو يعاود المضغ:

ـــــ"هــذه سمة مهمة لدى قومك .. لقد اتخذوا موضعهم في الشــرق الأوســط الجديد الذي كانوا يتحدثون عنه .. المثلث الذي حلمــت به إسرائيل كثيرًا .. مال خليجي (قبل أن ينضب) .. ذكاء إســرائيلي .. أيد عاملة مصرية رخيصة .. نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إسرائيل عدوًا"

قلت في غيظ من كل هذه المحاضرة:

ـــــ"ولماذا أعتبر إسرائيل عدوًا ؟.. هل لمجرد أن هذا يروق لك ؟"

نظر للفتاة وتبادل ابتسامة منهكة وقال:

ـ"نم الآن ..نم .. إن نصف ما أعرفه لا تعرفه .. والنصف الآخــر لا يهمك أن تعرفه .. نم وفي الصباح نرى كيف تخرجان من هنا محتفظين بأذنيكما .."

ثم هز الملعقة في يدي وقال:

ـــــ"لا ألاعــيب .. إنهم يعرفون مكاني وسوف يعودون هنا عــندما يزول مفعول الفلوجستين .. عندها يجب أن أكون موجودًا لأحميكما وإلا ...."

وأشار لعنقه بحركة ذات معنى..

* * *

هكــذا لم نستطع الفرار .. لم يكن هذا مطروحًا دعك من أننا كنا مرهقين فعلاً.. ألعن ليلة في حياتنا ونحن نجلس متلاصقين في هذا الكوخ كريه الرائحة لا نجرؤ على أن نتمدد أو نلمس أي جزء

مــن الجــدار ... هكذا سوف نبقى حتى الصباح وبعدها ؟.. كل شيء يتوقف على خطة هذا الفتى ...

أنــا لا افهمه .. أعتقد أنه من الطراز المثقف في وسط ليس وسطه .. الخروف الذي يفكر يصير خطرًا على نفسه والآخرين. أنا أعتبر مثقفًا في يوتوبيا .. أنا من القلائل الذين قرءوا كل شيء وقــع تحت أيديهم، لكن هذا لا يجعلني أتعاطف معه ذرة .. ليست الثقافة دينًا يوحد بين القلوب ويؤلفها، بل هي على الأرجح تفرقها، لأنهــا تطلــع المظلومــين على هول الظلم الذين يعانونه، وتطلع المحظوظــين علــى مــا يمكن أن يفقدوه .. إنها تجعلك عصبيًا حــذرًا.. دعك من تحول قناعاتك الثقافية إلى دين جديد يستحق أن تموت من أجله، وتعتبر الآخرين ممن لا يعتنقونه كفارًا ..

كــان شخير (جابر) قد بدأ يتعالى هو راقد في الركن منكمشًا على نفسه..

ماذا يريد من الحياة ؟.. لماذا يظل حيًا ؟

لو هددته بسكين لصرخ ولركل يدي .. لماذا ؟...

فــي الضــوء الخافت جلست أخته جوار جرمينال تنظر لها وهي شبه نائمة..

جــرمينال نائمة كطفل .. تتحرك شفتيها .. تهمس من روح معذبــة: ليلى .. ليلى ... ليلى هي أمها طبعًا (فلا احد في يوتوبيا يستعمل لفظة ماما أو بابا).. للمرة الأولى أراها مجرد طفلة معذبة تريد العودة إلى أمها. لم أر جرمينال إلا ثائرة ملولاً متعالية. لابد من النوم على الأرض كي تظهر لي حقيقتها ..

ظلـــت (صفية) بضع دقائق تنظر ثم مدت يدها في حذر إلى شـــعر جـــرمينال وراحت تتلمس خصلة منه .. ثمة شيء حيواني غريب في تلك اللمسة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحســس أناملي في وجل وفضول عندما كنت في حديقة حيواننا. هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلاً ثم غاصت في النعاس ثانـــية .. لكن الفتاة فعلت بالضبط ما توقعته .. وثبت للخلف مترًا بطـــريقة زادتنــــي اقتناعًا بنظرية القرد تلك .. هذه حركات غير بشرية .. هذه حركات تمت بصلة لانعكاسات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها ..

قالت الفتاة بصوت مبحوح:

ــــــ"شـــعرها جميل .. جميل جدًا ونظيف .. لا أعرف كيف تصورتم أن تخدعونا .. ليس بشعر كهذا !"

ثم مدت يدها إلى يدي فأمسكتْ بأناملي برفق وقالت:

ــ"هل ترى الفارق ؟"

نعـــم أرى الفارق .. يد ناعمة نظيفة منمقة ويد خشنة متسخة مقصـــفة الأظفـــار .. الغريب أن الأولى هي يد الرجل والثانية يد الأنثى ..

قلت بلا مبالاة:

ــــــ"كنا في الظلام .. يمكنك أن تخدعي أي واحد في الظلام، وكنا سنعود بسرعة .."

ثم أشرت لأخيها النائم وقلت:

ــ"من أين يعرف هذا كله ؟"

ـــ"يصـــمم أن يقرأ .. يبحث في القمامة عن كل كتاب قديم فهـــي أشـــياء لم تعد تباع .. هذه مزية أن تهتم بأمور لم تعد تهم أحـــدًا .. علـــى الأقل لن يسرقك الآخرون .. هذه الكتب ملقاة هنا مـــنذ ســـنين بينما لا يمكن أن تترك عود ثقاب من دون أن يأخذه أحد.. إنه ..."

ثـــم راحت تسعل في عمق حتى توقعت أنها ستبصق رئتيها خارجًا .. فانتظرت حتى فرغت وأنا أنظر لها في دهشة فقالت في شيء من الفخر:

ـــــ"هذا درن .. إنه يعود منذ تسعينات القرن الماضي.. ليس لدينا علاج، وهو لا يجدي على كل حال"

ثم أشارت لأخيها النائم وقالت:

ـ"هو من طبقة (التلامذة).. إنهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو جامعـــات مـــنذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملاً، ولم يستطيعوا أن يصـــنعوا شيئًا بما تعلموه .. لكن علاقتهم بالكتب لا تنتهي .. منذ عشـــرين سنة لم يعد لأحد فرصة على الإطلاق ..لم لو يكن أبوك ضابط شرطة أو رجل أعمال أو تاجرًا يورثك تجارته، فلا فرصة لـــك على الإطلاق وسوف تنضم لهؤلاء الذين يشمون (الكلة) في الخرائب.. "

ثـــم تـــثاءبتْ كـــثور وأغمضت عينها .. رحت أرقبها وأنا جالس.. مليحة بلا شك لكن كيف يمكن أن تجد هذه الملاحة تحت كـــل هـــذه الخشـــونة والقذارة ؟.. أن تزيل كل هذه الأعوام من المعانـــاة والفقر والجوع ؟.. مستحيل .. هذه الفتاة ستتزوج واحدًا

مــن هؤلاء يوسعها ضربًا ثم تموت في إحدى نوبات غضبه .. لا يبدو أمامها مستقبل آخر ..

لا أعتقد أنني نمت ..

لو سألتني لقلت لك إنني لم أنم ..

لكــن هناك ذلك الضباب الذي يحيط بك ويتأرجح بين الكثافة والخفــة .. الوعــي يــنغمس في مستنقع ويخرج منه .. كذا كان نومي ..

-3-

الصـــباح .. لا إفطار لأن وجبة واحدة تكفي المرء .. دعك من أننا كنا زاهدين في الطعام كل الزهد.

الصباح و(جابر) خارج الدار ..

الصباح وصفية تقوم بأعمال غريبة من نوعها ..

تمزق الأوراق من مجموعة من كراسات المدارس القديمة ..

تقطع بعض العلب من الورق المقوى إلى شرائح طويلة ..

تسكب سائلاً أسود في إناء ..

تجمع أعواد ثقاب تالفة في كيس ..

تلحم قطعا من البلاستيك ..

تبري بقايا صابون وتضع عليها بعض البوتاسا الكاوية ..

تسكب بعض الماء في البطارية ..

تمزق قطعة من الليف إلى أشلاء ..

غـــريب حقــا هـــو جدول الأعمال المنزلية لدى نساء هؤلاء القوم. قال (جابر) إنه لا يهمني أن أعرف كل شيء وهذا رأيي . ليســت مـــتابعة نشـــاطات الصراصـــير ذات أهمـــية إلا لعلماء الحشرات..

لـــن أســـألها عـــن شـــيء .. لن أسألها عن تمزيق كراسات المـــدارس القديمة، ولا عن سبب تقطيع علب الورق المقوى.. لن أســـألها عـــن الســـائل الأســـود ولا عن سبب جمع أعواد الثقاب الـــتالفة.. لن أسألها عن لحام البلاستيك ولا بري قطع الصابون .. لن اسأل عن الماء في البطارية ولا تمزيق الليف ..

صراصير ..

جـــرمينال ترانـــي أراقـــب (صـــفية) في فضول .. تهمس جرمينال في أذني:

ـ"لا تقل إنك تريدها .."

قلت إنني لا أمانع .. لها مذاق خاص فريد يختلف عن مذاق الفتـــيات اللاتـــي اعـــتدتهن . اللاتـــي لهـــن نفس العطر والشعر الحريـــري والوشم والقرط في الأنف أو الشفة السفلى .. اعرفهن وأحفظهـــن كما تحفظ أنت الدجاج .. لا توجد دجاجة تختلف عن الأخـــرى ويمكنك أن تشعر بأنك أكلت هذه الدجاجة من قبل، أما هـــذه فلابد أنها تجربة تختلف .. لكني لن أجازف بمغازلتها ونحن تحت رحمة (جابر)..

لـــن أجـــازف بمغازلتها وطبقات القذارة تغلفها وربما تغلف روحها ..

لن أجازف بمغازلتها وهي تسعل دمًا كل خمس دقائق..

* * *

لـــم يفعل (جابر) شيئًا طيلة هذا النهار .. لما سألته عما ينوي عمله بنا قال في غموض:

ـ"انتظرا حتى الوقت المناسب .."
ـ"ولماذا لم تتخلص منا ؟"
ـ"لأنني أمقت العنف من الطرفين، ولأنكما جاهلان لا أكثر.. لم تفعلا إلا ما يفعله الفأر الذي يحاول سرقة بعض الخبز لأنه لا يعرف شيئًا آخر .. هذه غريزته وتلك فطرته . لكنكما لستما فأرين .. هذا ما أحاول أن أخبركما به .."

ثم أخرج علبة بها بعض الشحم، ولوث أنامله ثم قال وهو يضع يده جوار خدي:
ـ"بعد إذنك !"
ـ"تفضل .."

هكذا لوث وجهي ووجه جرمينال .. بعناية ودقة هذه المرة.. قام بتلويث أيدينا ثم انتخب لنا ثيابًا أكثر قذارة .. هذه المرة كانت هناك أستاذية لا شك فيها في لمساته، حتى بدت جرمينال كالمتسولين واعتقد أنني أبدو بصورة أسوأ.. ثم شرح لي كيف نمشي وكيف نتكلم ..

ـ"هؤلاء قوم رأوا كل شيء وعرفوا كل شيء، لذا هم لا يتكلمون تقريبًا .. قللا كلامكما قدر الإمكان .. مثلاً لو أردت شراء شيء راق لك فلا تسأل عن الثمن كتلاميذ المدارس .. امسك الشيء بغلظة وانظر في عيني البائع متسائلاً.. لا تقل شيئًا.. سوف ينظر في عينيك بشراسة ويقول لك (مائة) مثلاً، ولا يزيد .. عندها تأتي بحركة بذيئة من إصبعك وربما تطلق صوتًا قصيرًا من حلقك .. ثم الق له بخمسين ولا تتكلم .. "

ثم فكر حينًا وأضاف:

ـــــ"العـــادات الحمـــيدة تقتل هنا .. لابد من أن تبصق على الأرض مـــن حـــين لآخـــر .. تحسس عضوك التناسلي من فوق الثـــياب من وقت لآخر .. هي لابد أن تهرش صدرها ورأسها.. المفروض أن الأول يعج بالبراغيث والثاني بالقمل .. هذه لمسات مهمة وتقلل من النظرات الفضولية لكما"

قـــال لي إننا بصدد جولة يريني فيها ذلك العالم الذي اجهل كـــل شـــيء عنه.. قال إننا حران لو أردنا الفرار لكنه لا يضمن حياتينا لحظة أخرى بعد هذا ...

ـــ"سوف ترتكبان جملة من الأخطاء، ولسوف يمزقونكما في اللحظة ذاتها .."

هكـــذا غادرنـــا الكـــوخ الحقير لنخرج إلى شوارع في غاية الازدحام والفقر .. هناك لمسات تدل على أنه كانت هناك حكومة يومًا ثم تخلت تمامًا عن كل شيء .. في الأزقة والشوارع الجانبية تحدث المشاحنات لأي سبب ومن دون مبرر ..

ـــــ"إنهـــا أخلاقـــيات الزحام .. ضع ست دجاجات في عشة ضيقة وراقب كم تصير مهذبة .. لو أن دجاجة واحدة لم تفقأ عين جارتها أو تلتهم أحشاءها فأنا مخطئ .."

سألته وأنا أمسك بيد جرمينال الممتقعة ذعرًا:

ـــ"لماذا تستمرون في التكاثر إذن ؟"

ـــ"لأن التكاثر هو رفاهية الفقراء الوحيدة .. دعك من أن كل هـــؤلاء يعـــتقدون أن واحـــدًا من أبنائهم سيغير كل شيء .. في

انتظار هذا المجهول يتكاثرون، والصبي يسعى بحثًا عن رزقه كدجاجة .. لا أحد يعرف إن كان قد مات أو أكل أو نام .. في سن الحادية عشرة يتعلم استنشاق (الكلة) وبعد هذا يضطر لارتكاب الجريمة كي يتعاطى ما هو أفضل .. طبعًا من يسرقه فقير مثله لأنه لا احد يستطيع أن يسرق منكم .. مستقبل مشرق كما ترى .."

ثم حك رأسه وابتسم:

ـ"برغم هذا انخفض معدل خصوبتنا كثيرًا .. جيلان كاملان أكلا طعامًا ملوثًا ويعج بالهرمونات .. هكذا صار من المعتاد ألا ينجب المتزوجون لكن المحصلة النهائية هي أننا نتزايد بلا توقف على كل حال .. كانت هناك فرق إخصاء ثم انتفت الحاجة لها .."

هتفت جرمينال في ذهول:

ـ"فرق إخصاء ؟"

ـ"نعم .. ألم تسمعي عنها ؟.. مجموعات من رجال الشرطة الملثمين يهاجمون الفتيان .. بسرعة وبدقة جراحية يخدرون الفتى ويقطعون حبله المنوي ثم يخيطون الجرح ويفرون .. بهذا يصير عاجزًا عن الإنجاب للأبد.. في المتوسط كان يتم تعقيم ثلاثة فتية في الليلة الواحدة "

ـ"وماذا حدث بعدها ؟"

ـ"متدينون كثيرون في يوتوبيا قالوا إن هذا حرام .. فلنعتمد على الطعام الملوث ليقوم بالتعقيم بنفسه بدلاً من أن نتحمل نحن الوزر ! .. وهكذا تزايد نشاط تلويث الطعام، وقد تمت زيادة

جرعة مادة الجوسيبول في الزيوت التي نتعاطاها إلى أعلى معدل ممكـــن لها، وهذه المادة شديدة الفعالية في قتل الحيوانات المنوية وتدميـــر نســـيج الخصية .. برغم هذا نحن نتكاثر كالبكتريا .. لا تـــوجد طـــريقة للقضاء على البكتريا في العالم مهما استعملت من مضادات حيوية فعالة .. إنها تجد طريقًا دائمًا .. "

سألته السؤال الذي كان يلح علي ليلاً:

ـ"ولماذا لا تثورون ؟"

انفجر يضحك حتى سال دمعه وقال:

ـــــ"هـــذا شـــيء يتكرر من حين لحين .. لكن ثورات القرن العشرين التي تحقق غرض الجموع قد صارت تاريخا بائدًا .. لقد تعلـــم مـــن هم فوق من أخطاء الآخرين .. لن يرى أحد ثانية شاه (إيـــران) الـــذي يحلق بطائرته بحثا عن بلد يؤويه، ولن ترى جثة (شاوشيســـكو) أو (موســـوليني) معلقة في ميدان عام .. إن النظام الأمني معقد متطور اليوم .. هناك ستة أجهزة أمنية تراقب بعضها ومهمـــة كل منها حماية الحكام .. إن ثورات اليوم هي أقرب إلى (هوجة) ثم تحلق طائرات الهليوكوبتر لتلقي عدة قنابل وتطلق عدة طلقات فيتفرق الجميع .. "

فـــي هـــذه اللحظة اقترب منا رجل رث الهيئة له لحية غير حلـــيقة، وإن كانت ثيابه توحي بأنها زي رسمي غير معتنى به .. ومد يده لنا:

ـ"هل معكما شيء يؤكل ؟"

هز (جابر) رأسه وواصل المشي .. ثم قال:

ـــــ"إنهم في كل مكان... لا توجد أعمال .. ما لم يجد عملاً في مستعمراتكم بالساحل الشمالي فلا أحد يريد منه شيئًا .. سوف يقضـــي حـــياته يبحث عن بقايا الطعام الملقاة في أكوام القمامة ثم يموت بالدرن ذات يوم فيجدونه جوار جدار .. هذه هي حياته .."

كـــنت في هذه اللحظة قد بلغت قمة التقزز والذهول .. أتذكر (يوتوبـــيا) وبيتـــي والـــدولارات التـــي أبعثـــرها .. أتذكر الشلة والفلوجستين الذي أتحرق شوقًا له. أتذكر كلبي الذي يلتهم ما يشبع خمســـة مـــن هؤلاء يوميًا ... لست مستعدًا لحظة للتخلي عن هذا كلـــه، لكنـــي كذلك لا أبتلع فكرة وجود كل هذا الفقر .. الآن فقط أفهـــم هذه الأسوار العالية ورجال المارينز والمطار الداخلي .. لو تركنا كل هذا لسال هذا الطوفان ليغرقنا ويقتلنا .. لا أعرف كيف وصل الأمر لهذا الحد لكن لابد من أن يستمر ..

جـــرمينال راحـــت تغلي وترتجف .. وراحت تغمغم من بين شفتيها:

ــ"يا الله !.. أريد أن أعود !.. أريد أن أعود !"

ضغطت على يدها كي تخرس ...

* * *

كـــان هناك رجل يقف وسط زحام حوله، ويبيع زجاجات بها سائل ملون مدعيًا أنها العلاج الشافي من الدرن والسرطان .. إنها خلطـــة من الأعشاب صنعها هو ولا يعرف سرها اللصوص في (يوتوبـــيا) كما قال.. إنهم ينفقون مالهم في هراء يبتاعونه بأغلى الأسعار بينما العلم كله هنا ..

عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..

هــذه أدويــة لا قيمة لها إلا انها رخيصة !.. أي إنها تعطيك مزية أن تتعاطى شيئًا ولا تنتظر الموت عاجزًا ..

هــناك رجــل يقف أمام منضدة خشبية مقلوبة عليها أجهزة صغيرة .. يقول صائحًا:

ــ"أفضل أجهزة سرقناها من (يوتوبيا).. تعال الآن !... "

وتــوقفت عيــناي على شيء ونظرت لــ جرمينال فوجدتها تنظر لذات الشيء في نهم ..

كــان هــناك جهاز محمول صغير على تلك المنضدة، وعلى بعد متر واحد منا !

لم يكن هذا جهاز محمول ..

كــان فراشًا نظيفًا ووجبة ساخنة وحمامًا وجنسًا وفلوجستين وكئوس خمر وبيتًا وأصدقاء ...

صورة الجهاز الفاتنة لم تفارق ذهني ...

غادرنــا الــزحام فتأخرت جرمينال قليلاً جوار أحد الأزقة، وقالت إنها راغبة في قضاء حاجتها. قال (جابر) بلا مبالاة إن هذا بوســعها ..كل مكان يصلح .. الخدمات الصحية لا وجود لها لأن شــبكة المجــاري صارت تاريخًا .. في الماضي كانت الحكومة تتشــدق بتجديد شبكة المجاري، لكنها أهملتها عندما صارت هناك

وســائل أخـــرى للاسَـتيلاء علـــى المال وبعد ما صارت اللعبة واضحة: نحن لا نبالي بكم على الإطلاق .. فلتأخذكم مصيبة ..

غابـــت جرمينال في الزقاق لربع ثانية ثم عادت راجفة وهي تصيح:

ــ"إنه مليء بالشباب النائم !"

قال (جابر) ضاحكًا:

ــــ"إنهـــم تحـــت تأثيـــر (الكلة) ومسحوق الصراصير .. لا تخافي.. لو أن ملكة جمال الكون تعرت أمامهم لما حركوا ساكنًا.. هـــؤلاء انتهى أمرهم كرجال من زمن .. ربما انتهى أمرهم كبني آدمين أيضًا !"

هكذا عادت إلى الزقاق المليء بشباب لم يعودوا رجالاً.. ...

فجأة سمعت ضوضاء ..

فجـــأة رأيت منظرًا يشبه الغوغاء عندما هاجموا الباستيل .. حوالي عشرة رجال يحملون السيوف والعصي ويهرعون نحونا.. وهتف أحدهم وهو يشير لنا:

ــ"هؤلاء سرقوا المحمول !.. أنا رأيت الفتاة تدسه في جيبها!

-4-

إذن هي فعلتها !..

متى وكيف ؟.. لم ألحظ هذا قط ...

انقض بعضهم على الزقاق فهرعت ألحق بهم، لأجد جرمينال تستند إلى جدار، وهي تمسك بالمحمول كأنها كانت تحاول طلب رقم .. رقم أمها في (يوتوبيا) طبعًا ... كانت ترتجف وعلى وجهها أعنف رعب رأيته في حياتي .. قطط قليلة أظهرت هذا الهلع وهي محاصرة في ركن زقاق ..

من فرط الانفعال راحت تهرش صدرها وشعرها في فظاظة وبحركة مضحكة، كأنها تقول لهم: أنا لست من تظنون .. أنا عامرة بالبراغيث !.. انظروا !!!

همس (جابر) في أذني:

ــ "أحمقان !... من الذي يبيع المحمول وبه خط ؟... هذا يسهل اقتفاء أثره !"

خرج الرجال من الزقاق وهم يمسكون بجرمينال.. وأقسم أحدهم أنها يجب أن تلقى عقابها هنا والآن وبطريقة الإيذاء المهينة التي يجيدها الرجال مع النساء.. لقد تحول هؤلاء القوم إلى مخلوقات أبعد ما تكون عن البشر .. قشرة المخ لم تعد تؤدي أي

دور معهم .. فقط يتحركون للجنس أو العنف .. الاغتصاب يمنح الشيئين معًا ..

قال (جابر) وهو يقف وسط هؤلاء المسعورين:

ـــ"اســمعوا .. هذه الفتاة جائعة .. أكثر جوعًا منا .. كلكم سرق يومًا بسبب الجوع .. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها .. "

ثم هوى على خدها بصفعة ألقت بها مترين إلى الوراء:

ـــ"متسول يسرق متسولاً !.. كانت الحمقاء تحلم بالاتصال بأخيها الذي خطفوه في (يوتوبيا) !"

هــنا فقــط هدأ الجميع، وقال أحدهم وهو يرفع يده بما معناه (انتهى التجمع يا رجال):

ـــ"لن يعود .. سوف يتسلون عليه ثم يقطعون يده ويلقون به في الصحراء، ثم يذهبون لأداء العمرة سائلين الله أن يغفر لهم .."

كانت جرمينال تبكي فعلاً، فازداد بكاؤها حرقة .. هذه جاءت في الوقت المناسب لأنهم تفرقوا وهم يضربون كفًا بكف ..

عــندما ابــتعد الجميع، دنا منها (جابر) ووجه لها ركلة في خصرها أسقطتها أرضًا، وقال:

ـــ"يــا بنت الــ (..)... أقسم بالله أن هذه آخر مرة أحاول حمايــتكما .. قلت لكما أن تتصرفا على مسئوليتكما الخاصة لو لم تنفذا أوامري.."

* * *

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عــنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد

أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ــ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

* * *

نهضنا ومشينا وراء (جابر) في خجل ونحن نبصبص بأذيال وهمـــية .. لقد جاءت إذن اللحظة التي يصفعنا ويركلنا فيها واحد من هؤلاء .. صحيح أنه فعل ذلك كي لا يمزقنا آخرون، لكني لا أقـــبل أن يمد أحد يده علي .. حتى (مراد) و(لارين) .. لقد رددت الصـــفعة لـــ (مراد) ذات مرة .. أصيبت (لارين) بنوبة هستيرية لأننـــي مددت يدي على أبي، فقلت لها إن هذا ليس تفضلاً منه .. أما وقد جاء بي للعالم فعليه أن يتحمل مسئولياته في شجاعة ..

قلت لجابر في اشمئزاز:

ــ"لو ظننت أننا سنبقى هنا للأبد فأنت مخطئ"

قال دون أن ينظر لي:

ـــــ"لـــم أتوقع هذا .. كما قلت أنتما حران في أن تتصرفا أو تفـــرا لكني أعرف ما سيحدث بعد دقيقة .. لو أردتما البقاء معي فعليكما الامتثال التام لكل ما أقول .. أنا من يضع الخطط ويختار اللحظة المناسبة .. "

أذناه مليئتان بالصماخ ..

أصابع قدمه متقرحة تطل من صندل حقير ..

نظارته ملحومة بالنار ..

عينه تالفة ..
غده أسود ..
أخته حيوان مصدور..
طعامه فاسد ..
كتبه بالية ..
أحلامه موءودة ..
أفكاره عتيقة ..
أظفاره مسودة ..
شعره مجعد معجون بالتراب ..
اسمه (جابر)...
قومه رعاع ..
أصدقاؤه حثالة ..
برغم هذا كله يمشي كالبشر ويتكلم كالبشر ..
برغم هذا كله لم يرتم عند قدمي متوسلاً لي كي أقطع ذراعه..
برغم هذا كله يصفع جرمينال ويهددنا ..
ما أحمق هؤلاء القوم وما أشد سذاجتهم !

* * *

كانت هناك بائعة عجوز تضع كومة من الصحف .. صحف جديدة غير مقروءة .. يبدو أنها تبيعها بالكيلو .. وثمن خمسة الكيلوجرامات بيضة كما قالت ..

ابـــتاع منها بعض الصحف مقابل علبة ثقاب، ثم عاد لنا وهو يتصفح تلك الأشياء .. ناولنا واحدة منها وقال:

ــــ"هذه هي الصحافة الوحيدة الرائجة اليوم .. خليط عجيب مــريض مـــن الجـــنس والدين والخرافات ونظريات المؤامرة .. غـــلاف الجـــريدة لا يخلـــو من عبارات (كشف المستور) و(في الغـــرف المغلقة) و(الجن) و(الاغتصاب) .. الخ .. مع تلميح عام يوحـــي بأن كل النساء عاهرات وكل الرجال قوادون .. لابد من عدة صور عارية من المجلات الأجنبية، مع وضع علامة سوداء علـــى العينـــين، كـــأنهم لا يريدون فضح البريئات صاحبات هذه الصـــور .. وبـــرغم جـــو الانفلات الجنسي العام فإن العاهرات الفقيـــرات قبيحات كالأبالسة، لهذا يبتاع الشباب هذه الجرائد بحثًا عن فتيات حسناوات نظيفات لا يبصقن دمًا .. أما النوع الآخر من الصحافة .."

وفتح جريدة أخرى وأردف:

ـــ".. فهـــو عـــبارة عن رسائل حب موجهة للحكام .. هذه يصدرها قوم من يوتوبيا وسواها كانوا منا ثم سمح لهم الحكام بأن يعيشوا هناك، مفعمين بعرفان بالجميل وامتنان وتهيب يبلغ درجة العبادة .. هذه مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفا مشويًا ينز منه الدهن .. لهذا يكتبون كلامًا لا يعني أي طرف ولا أحد يقرؤه إلا الحكام.. بالواقع لا يقرؤه الحكام لأنهم مطمئنون له. هـــذه المقـــالات نوع من بصبصة بذيل فكري. فيما مضى كانت هـــناك معارضة وكانوا يهتمون بمهاجمة هؤلاء الكتاب، ثم فهموا

أن تـــدخلهم في رسائلَ الحب هذه قلة ذوق .. كأنك تقرأ خطابات غير موجهة لك !"

ثم أضاف وهو يطوح بالجريدة:

ـــــ"هذه الصحف سلعة ممتازة للف الأشياء... كما أنها حلت مشاكل غياب المياه !.. "

لم أكن ذا مزاج للمزاح، فقلت له:

ــ"ماذا تنوي عمله معنا ؟"

ــ"سأرجعكما إلى (يوتوبيا) طبعًا .. لا نية لي في قتلكما .."

ــ"وكيف ؟"

نظر لي في غموض ولم يتكلم ..

... [illegible] الصحفيون [illegible] مثلها تماماً [illegible]
يشرح تلك الأشياء .. تؤلمنا ولكنها تعنينا ؟..

- هذه هي الصحافة الرخيصة الرائجة اليوم .. [illegible] جديد

[illegible] الصحف [illegible] أين الخبر [illegible]
فالكتب المنشورة لا تخلو من عبارات (خدش الحياء) و[illegible]
الحروف الساقطة) و(العري) و(الإباحية) [illegible]
وحتى بين كل الشباب عاهرات وكل الرجال [illegible]
عدة صور عارية من المجلات الأجنبية [illegible]
ونفس المواطنين [illegible] لا يرددون [illegible]
الجمهور .. ومع حسن التفاهم [illegible]
الفيديوهات فيديوهات كالإباحية لهذا ينتج [illegible] هذه [illegible] بعد
على فئات مستقلة [illegible] لا يتصلون حتماً .. أما النوع الآخر من
الصحافة ..

وهناك جريمة أخرى وأرخص!

- .. فهي عبارة عن رسائل حب موجهة للحكام .. [illegible]
يصدرها قوم من [illegible] وسواء كانوا [illegible] ثم سمح لهم الحكام [illegible]
[illegible] مطمئنين [illegible] بالتجميل والتدليل [illegible]
العباد .. هذه مشاعر تفوق مشاعر كلها ووضع [illegible] أمامه [illegible]
[illegible] .. لهذا يكتبون كلاماً لا يعني أي طرف و
أنه يقرؤه إلا الحكام .. بالرغم لا يقرؤه الحكام لأنهم مطمئنون [illegible]
هذه المقالات نوع من [illegible] قبل الثورة فيما مضى كان
هناك معارضة وكانوا يهاجمون [illegible] هؤلاء الكتاب ثم [illegible]

الجزء الرابع

الفريسة

-1-

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت بعد يوم واحد. لا أكثر فلا تقل العكس .. لا تكـــرر هـــذا الهـــراء وإلا طعنـــتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة..

كـــنت أكـــرههما كالصراصير . من الجميل أن تكره بصدق وحـــرارة. منذ دهور لم أكره شيئًا بهذا الصدق .. كل شيء ألقاه بعاطفـــة اشمئزاز عميقة لكن لا كراهية. أنت لا تكره البصاق .. فقط تشمئز منه ..

من الجميل أن تكره ...

برغم كراهيتي تلك – وربما من أجلها – لا أنوي قتلهما ..

هما تحت رحمتي تمامًا ولو فتحت فمي فلن يطول الأمر قبل أن أراهمـــا قطعًا من اللحم المفروم تأكلها الكلاب لو كانت هناك كلاب.

لكني بالفعل لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

هـــذه هـــي النقطة التي تحدد كل شيء .. الدليل الوحيد الذي يخبرنـــي أننـــي ما زلت آدميًا ولم أتحول إلى ضبع. إنني في هذا

أتفوق عليهما .. أتفوق على أهلي وجيراني .. أتفوق على ما كنته أمس ..

لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

الأهم أن كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدًا

كلانا هنا وهناك نعشق العنف ..

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات ..

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم ..

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت ..

هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل ..

هناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله، وهم لا يعرفون لماذا ولا كيف استحقوه ...

هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة ..

هنا نحترف الدين لأننا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباء بلا ثمن .. العقل البشري لا يتحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جن ...

لهذا لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ...

ولكن كيف أفعل هذا بينما (سمية) تزوم كضبع غاضب ؟

* * *

الشخصية المصرية قد لاقت الكثير من المرمطة في المائة عام الأخيرة حتى صارت كزوجة عاملها زوجها بتوحش عدة أعوام، من ثم أصبحت هي ذاتها أقرب إلى الوحشية والشراسة. وكلما زاد الجهل قلت سيطرة قشرة المخ على السلوك، وهذا يجعل الجرائم التي ترتكبها الطبقات الدنيا حيوانية بالمعنى الحرفي

للكلمـــة ..وفي النهاية يقف القاتل ناظرًا لعدسات الصحافة النهمة بعينين غبيتين زائغتين ويكتفي بترديد: (أصل الشيطان وزّني)..

* * *

(سمية) جاءت في الخامسة عصرًا إلى كوخي ..

كانــت ثملــة أو هذا ما قدرته من مشيتها المترنحة ولسانها الثقــيل. جلست القرفصاء على الباب مباعدة ساقيها لتتفادى بركة ماء آسن صغيرة هناك، وراحت تهرش شعرها بعنف ...

قالت وهي تنظر لي بعينيها القاسيتين الصغيرتين:

ـ"أنت كاذب بن كاذب .."

كنت أعرف ما تريد قوله، لكني تظاهرت بالغباء وسألتها عما هنالك . فقالت:

ـ"أنت تعرف أن الفتى ضربني على عنقي .. بعدها لم أشعر بشـــيء .. لكننـــي أعــرف جــيدًا أنه ضربني ... أنت كذاب بن كــذاب.. قلــت إننـــي ســقطت دون أن يلمسني، ولولاك لمزقه الرجال.."

قلت وأنا أجلس القرفصاء بقربها:

ـ"أنا رأيتك تسقطين ولم أر أنه ضربك كما تقولين"

كانــت غبــية حيوانية .. لن اندهش لو قضت حاجتها وهي جالســة حــيث هــي... حيوان بليد يجلس هناك على عتبة داري ويهرش رأسه بلا توقف ..

ــــ"لــم استطع أن أعمل يومين كاملين .. أحيانًا أشعر كأنه أطار من عقلي برجين .. عمي يضربني بلا انقطاع .. "

ثم قالت في حزم ووجهها القبيح يتقلص:

ــــ"سوف أخبر عمي أن الرجل ضربني .. السرجاني سوف يأخذ بثأر ابنة أخيه .. "

نعــم .. السرجاني لا يرحم من يتلف بضاعته .. أنا أعرف هذا.. كله إلا عدة الشغل .. السرجاني يغار على (عزة) .. يحمل مطــواة قــرن غــزال يمكــنه أن يرشــقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهي (عزة) .. السرجاني أخذ قرنيتي مني

ملت على سمية وقلت همسًا:

ــــ"ســمية.. أنا أعرف هذا الفتى .. بيني وبينك هو صاحب مزاج خاص .. هناك رجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى .. "

قالت في دهشة:

ــــ"كــل الرجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى، والسبب أنهم أنجاس وأولاد (...)"

ــــ"لــيس كــل الضــرب سواء .. الضرب الذي تتلقينه من الزبائن يختلف عن تلك الضربة القوية على جذور العنق .. الفتى صــاحب مــزاج يحب أن يضرب الفتاة حتى تفقد وعيها وتصير عجينة لينة بين يديه .. وقد صارحني بهذا، وهو مستعد أن يدفع.. والغاوي ينقط بطاقيته "

وأجريت حسبة صغيرة على أصابعي:

ــــ"أنــت لــم تعملي يومين .. لنقل إن هذا معناه مائتين في اثنــين.. أربعمائة جنيه كاملة .. سوف نضيف مائة من أجل الألم

الـــذي تشعرين به .. إذن هي خمسمائة جنيهًا لك وحدك .. بما أن عمك لن يعرف شيئًا فلن يأخذ شيئًا .."

ضحكت ضحكة رقيعة متوحشة .. وقالت:

ــ" خمسمائة جنيهًا لي وحدي ؟"

ــ"نعم ... "

ــ"وأنت ؟"

ـــــ"أنا مستفيد طبعًا .. لهذا أدافع عنه .. من واجبي أن أوفر لـــه مـــزاجه مـــا دام يدفـــع .. إنه – بيني وبينك – يسرق سكان يوتوبيا. لهذا معه مال كثير ومعه فلوجستين .. "

ــ"فلوك ؟"

قالتها بنظرة حالمة تسبح في سموات التأمل الكيميائي..

ــ"نعم .. فلوك .. تصوري هذا ؟"

ــ"هيء هيء هيء ..."

تركتها حيث هي وهرعت إلى داخل الكوخ .

كان الفتى جالسًا على الأرض ينظر إلى السقف شارد الذهن، بينما الفتاة تجلس جواره وقد أراحت رأسها على كتفه. قلت له في عصبية:

ــ"اسمع .. هل معك فلوجستين ؟"

ــ"أنت تعرف أنك أخذت كل ما كان معي .."

ــ"هل معك نقود ؟"

قالت الفتاة وهي تعبث في حذائها:

ــ"معي .. كم تريد ؟"

ـ"هاتي خمسمائة جنيه.. بسرعة !"

ناولتنـــي ورقة نقد فئة خمسمائة، فكومتها في يدي وخرجت إلى حيث كانت سمية جالسة هناك القرفصاء تردد بلا توقف كأنه لم يكن هناك أي حوار قبل هذا:

ــــ"هو ضربني .. ضربني .. وأنت كذبت .. لولاك لمزقه السرجاني"

دسست الورقة في يدها وقلت:

ــــ"هي لك وحدك .. قلت لك إن الفتى صاحب مزاج .. فقط لا تقحمـــي الســـرجاني في الموضوع. الفتى قد يطلب منك خدمة أخرى اليوم أو غدًا وسيدفع ما تريدين"

ـ"رقبتي !"

وتحسســـت عـــنقها، وبـــدا أن هذه الدعابة السخيفة السطحية راقــت لهـــا، فـــراحت تضحك بلا انقطاع, ثم أفرغت أنفها على الأرض وابتعدت ....

لا تتكـــر أننـــي أجيد معالجة الأمور الصعبة ... سوف تعود لـــتطلب المزيد لأن الابتزاز لعبة من تعفنت روحه، لكني آمل أن يكون الفتى وفتاته قد عادا لعالمهما قبل ذلك ..

-2-

في أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي آخر إحصاء أمكن عمله، كان هناك 35 مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر، وكذا كانت البطالة التي وصلت إلي أعلي معدلاتها العالمية (10 ملايين عاطل).. لاحظ أن 78% من مرتكبي الاغتصاب عاطلون.. أي أن جريمة الاغتصاب هي في الحقيقة اغتصاب للمجتمع. دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجتمع دور قضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية .. إنها تبطئ التفاعل ولولاها لانفجر المفاعل .. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار ..

وهذا هو ما حدث بالضبط، لكن الانفجار لم يقض على الطبقة الثرية .. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين ..

فقط أدركت الطبقة الثرية أنه لا حياة لها ما لم تنعزل بالكامل، وبنفس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقيمون الحفلات الماجنة بينما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجي. (قناع الموت الأحمر).. أين قرأت قصة تحمل هذا العنوان ومتى؟ ومن كان كاتبها ؟.. لا أذكر ..

قــرأت كثيرًا جدًا .. قرأت كل شيء .. حتى أذابت الحروف بعضــها ... وحتى صرت لا انتمي للأغيار ولا انتمي ليوتوبيا .. فــي كــل موضع أنا غريب مختلف شاذ أحمق غير متكيف غير مندمج...

هل كان في وسع أحدهم منع هذا ؟

لا أعــرف .. أنا لست اقتصاديًا ولا سياسيًا .. دعك من أنني لم أتلق تعليمًا منتظمًا منذ دخلت الجامعة المجانية ..

فقــط كانــت هــناك مؤشرات مخيفة وكان على الجميع أن يتنــبهوا لها.. عندما تشم رائحة الدخان ولا تنذر من حولك فأنت بشكل ما ساهمت في إشعال الحريق ..

عــندما أفحص صحف العشر السنوات الأولى من القرن أشم الكثير جدًا من الدخان .. أوراق الصحف تفوح برائحة الدخان .. فلماذا لم يفعل أحد شيئًا ؟

لأن الجميع تواطأ علينا ..

الجميع تواطأ علي أنا كي أعيش بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب ..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة ..
بلا جهاز هاتف ..
بلا جهاز تلفزيون ..
بلا ربطة عنق ..
بلا أصدقاء ..
بلا حذاء ..
بلا سراويل ..
بلا فلوجستين ..
بلا واق ذكري ..
بلا أقراص للصداع...
بلا مؤشر ليزر ..
وأخيرًا بلا أحلام ..

يومًا ما سأموت ولسوف أعود لهم في صورة عفريت أو شبح ولسوف اجعل حياتهم جحيمًا .. لن يكون أحدهم في مأمن مهما توارى بعيدًا عني ..

لكني لن أقتل هذين ...

* * *

الفتى كان جالسًا لا يعمل شيئًا ..

قلت له بلهجة آمرة:

ــــ "أنت هنا تأكل من طعامي وتنام تحت سقفي، فلابد من أن تجرب أن تجد قوت يومك .."

نظــر لـــي فـــي تحد . يتمنى ان يمزقني لكنه تحت رحمتي بالكامــل، لهــذا يصمت .. لو كان يملك شيئا واحدًا محترمًا فهو الذكاء. قال لي:

ــ"معنا بعض المال .. فهل هذا ما تريد ؟"

قلت في اشمئزاز:

ــ"لا أريد شيئًا من مالك .. أريد أن تساعدني.."

كان هناك الكثير من العمل في شبكة مترو الأنفاق، لكني لن أطلعــه علــى شيء منها. لو عاد هذان لعالمهما فلا أريد أن أجد السُــلطات تقــوم بسد شبكة المترو بالكامل بالخرسانة .. سيكون معنى هذا أن نختنق ...

تلــك الشــبكة هي عالمي الخاص الذي أعرف كل شبر منه وأصير ملكًا ...

قلت لــ (صفية) همسًا وأنا أناولها القنينة:

ــ"كما قلت لك .. لا تكثري منه ولا تجربيه"

وغادرت الكوخ مع الفتى ماشين وسط أطنان المخلفات وبقايا المجــاري، وســط الصــبية الــذين يتشاجرون ويقذفون بعضهم بالمخلفات ...

مشــينا نحو ربع ساعة وسط بقايا المدينة هذه، وأخيرًا وصلنا لســاحة المعلم (طه) التي تحيط بها السياج. على الباب يلقاك ذلك البلطجي الذي لا أعرف دوره بالضبط، وهو غالبًا يرهب القادمين لا أكثر. يقدم لكل منا مدية . في الداخل مساحة من الأرض تقرب

مــن مساحة ميدان صغير، وهناك نحو خمسين من أمثالنا يعملون بلا توقف.

هــناك كومة في الركن من الدواجن النافقة . كومة ارتفاعها خمســة أمتار تقريبًا .. لا رائحة لأنها نفقت اليوم فقط في مزرعة ما خارج القاهرة.

علــى الكــومة الثانية تقف مجموعة من النسوة يقمن بإزالة الــريش .. هــناك قيزانات ماء ساخن يتصاعد منها البخار. يجب الحذر في هذا الجزء بالذات بسبب الحروق.

ترتفع الكومة الثالثة من جثث الدجاج العارية .. ترتفع في كل لحظة .. لو كان البشر دجاجًا لكان هذا المكان مقبرة جماعية ...

قلت للفتى وأنا أخرج مديتي:

ـــ"تنظف أم تشفي ؟"

نظر لي في حيرة وقد تقلص وجهه اشمئزازًا فقلت مفسرًا:

ـــ"أي تشق البطن وتخرج الأحشاء أم تقوم بتجريد العظام من اللحم ؟"

ـــ"لن أستطيع أن أقوم بهذا ولا ذاك "

نظرت حولي لأتأكد من أن أحدًا لن يسمعني:

ــــــ"لا أحــد يعيش هنا من دون عمل .. عمل قذر .. عمل حرام .. عمل غير قانوني .. ليكن ما يكون .. المهم أن تعمل .. لن أصرف عليك مليمًا بعد اللحظة ..!

قال في غيظ وقد أوشك على الانفجار:

ـــــ"تتحدث عن الإنفاق علي كأننا ننام في قصر ونستحم بماء الـــورد ونأكـــل نعامًا .. كم يكلفك هذا الفول الحامض ونومنا في عشة دجاج ؟"

صه !... رفعت إصبعي إلى شفتي منذرًا:

ـــــ"لو سمعوا لهجتك المدللة هذه ومخارج حروفك لسلخوك بدلاً من الدجاج .. انت تفضح نفسك في كل لحظة !"

هـــز رأسه في عناد البغال ثم اتجه إلى الكومة المجاورة التي يعمـــل عليها أربعة .. كومة (تشفية) الدجاج .. بالمدية ينزع اللحم عـــن العظـــام وهو يضع الدجاجة كاملة على حجر أملس .. يلقي باللحم على كومة مجاورة وبالعظام على كومة أخرى ..

خـــط تجمـــيع لابـــد أنه كان سيروق للخواجة (فورد) الذي صـــدعونا بالكلام عن عبقريته في ابتكار خطوط تجميع السيارات في القرن الماضي ..

قلت له وأنا امسك بالدجاجة الأولى وأشق بطنها:

ـــــ"هـــاك ... عندما ننتهي سوف نخرج من البوابة الخلفية وســـوف نأخـــذ نصـــيبنا .. نحو دجاجة لكل واحد منا .. من أين تحسبنا نحصل على اللحم ؟.. هذا الحفل لا يقام يوميًا .. هناك أيام يكتفون فيها فلا يسمح لنا بالعمل أصلاً"

قال في اشمئزاز:

ــ"دجاج ميت ؟"

أطلقت صوتًا قبيحًا من حلقي وقلت:

ــ"هل حقًا يبالي قومك بالذبح الحلال أيها النصاب ؟"

ثـــم قلـــت لنفسي إنهم على الأرجح يبالون .. يدققون جدًا في ذبـــح الدجاج لكنهم لا يدققون بصدد ذبحنا .. لا يسمّون علينا ولا يحسنون قطع الوريد.

راح يـــؤدي عملــــه معـــذبًا مشمئزًا تعسًا كاسف البال حانقًا مغتاظًا ..

لا بـــأس .. بعض أنواع الانتقام لا تتضمن القتل وبرغم هذا هي ممتعة شهية ..

جرح نفسه ألف مرة ، وصار الدم الذي يغطي يده خليطًا من دم الدجاج ودمه. دعه يجرب .. دعه يتعلم .. دعه يتألم ...

كـــان هناك فنان عالمي اسمه شارلي شابلن.. أنا أعرفه ولا ادري إن كـــنت مثلـــي أم لا . ذلك الفنان صنع شهرته من إظهار بطلـــه الفقير الضعيف ينتصر على الأثرياء وعلى رجال الشرطة. قـــال ذلك الفنان ذات مرة: يلقى الأثرياء في أفلامي شر مصير .. يتعثرون وينزلقون فوق قشور الموز، لأن أغلب الناس يحبون أن يـــروا الأغنـــياء المتغطرسين يفقدون كرامتهم . السبب أن معظم الناس في الحقيقة فقراء ..

تباطأ الفتى أكثر من مرة فقلت محذرًا:

ــ"إنهم يراقبون .. لو رأوك تتكاسل لطردوك شر طردة ولن تأخذ شيئًا .. "

وهكذا ظللنا نعمل نحو الساعة .. لكني لم أكن مستعدًا لقضاء اليوم كله هنا ..

-3-

عندما ازداد الزحام وكثرت الوجوه، لم أعد أرى الفتى ..
ربما كان هناك جواري لكنه غارق في الدم والعرق فلا يبدو منه شيء ..

هـــنا فقـــط أمكنني أن أهرع إلى الباب الخلفي للساحة، وكان (خليل) يقف عليها كالعادة .. نظر لي في دهشة وقال:

ـــ"مرة أخرى ؟.. لن أحميك للأبد .."

قلـــت وأنا أناوله المدية الدامية (لأنه من الممنوع أن تعود بها لدارك):

ـــ"بل تفعل .. إن هي إلا نصف ساعة .. "

ـــ"فلوك "

ـــ"لك هذا .. أنا أفي بوعودي.."

هكـــذا أفسح لي الطريق كي أمر. هو يعرف إنني سأعود من الطريق ذاته ولسوف يسمح لي بالدخول والعمل بعض الوقت قبل أن أتقاضى أجري كاملاً. إنه يقف هنا لمنع هذا الشيء بالذات ...

أركض ركضًا هذه المرة لذا بلغت داري خلال ربع ساعة .. لن أحتاج إلا إلى عشر دقائق ثم أعود في ربع ساعة آخر ..

كانت صفية بالداخل بانتظاري..

غســلت وجهي ويدي بسرعة من آثار دم الدجاج. قد أتحمل القذارة لكني لا أتحمل الدم أبدًا.

فــتاة يوتوبيا فقدت وعيها طبعًا بسبب مزيج دواء السعال مع أبــي صليبة مع الأفيون الذي شربته من يد صفية. لا أحد يتحمل هــذا المــزيج اللعين ما لم يكن قد جربه خمس مرات من قبل. لم تكــن جثة هامدة فأنا لا أرغب في مضاجعة جثة، لكنها كانت في حالة من الاستسلام التام الناعس.

كانت صفية الوفية قد فعلت كما أمرتها .. غسلت وجه الفتاة المتسخ وقدميها القذرتين اللتين صارتا تشبهان أقدام نسائنا..

قلت لها وأنا ألهث بعد ركضي:

ــ"شكرًا يا صفية .. والآن انصرفي .. لن أستغرق أكثر من عشر دقائق"

مسحت بأناملها على شعر الفتاة الناعم وقالت:

ـــــ"خـــذ راحـــتك .. إن جلدها أملس كجلد الأطفال .. أنت تستحق الراحة .. شقيان .. تحتاج إلى شعر نظيف وجلد أملس .. خذ راحتك ... فليغسل جمالها أدران روحك "

الغريب أنها كانت متأثرة من أجلي، رطبة العينين، ومسلكها أقــرب إلــى حــنان الأمهات .. بدا لي كأنها ترغب في الانتظار لتــرى مـــا سأفعله ولتطمئن على أنني سعيد، لكني لا أسمح بتاتا بشيء كهذا .. صفية سوف تظل نظيفة .. تعرف لكنها لا تسمع.. تسمع لكنها لا ترى .. ترى لكنها لا تلمس ..

غادرت (صفية) المكان فانفردت وحدي بفتاة يوتوبيا ..

عاجزة .. غائبة عن الوعي .. لا تقدر على عمل شيء ..
إنه النصر !..

هذا هو النصر الوحيد الذي أستطيع تحقيقه .. قهر هذه الفتاة ليس قهر أنثى بل هو قهر طبقة بأكملها. قهر ظروف ...

ســوف ترى على يدي ما لم تره من قبل. أليس فتيان يوتوبيا فتــيات لهن شوارب ؟.. ألسنا نحن الفحول الذين ترتجف نساؤهم خــوفًا مــنا واشــتهاء لنا ؟.. ألا تتمنى الواحدة منهن بين ذراعي زوجها أو عشيقها أن يغتصبها أحدنا ؟.. ألسنا نحن كابوس رجال يوتوبــيا وهمهم المقيم ؟.. أليست الرجولة قمحًا ينضج في شمس المعاناة اليومية ؟

الفتى ملطخ بالدماء في ساحة المعلم طه وسط الدجاج، وأنثاه هنا تحت رحمتي ..

كنت أرتجف من هول الفكرة. توارت (عزة) .. (عواطف).. (نجاة).. توارى حلم ما بعد الجنس ..

انتقامــي ســوف يكون مريعًا .. انتقامي سيكون جديرًا بأن يكون انتقامًا ..

سوف ......

سوف ...

ماذا يحدث لي ؟

كلما نظرت لوجهها لم أر إلا وجه صفية الأسمر. تلاشت فتاة يوتوبــيا المدللة فلم أعد أرى إلا وجه صفية القسيم المفعم بالبؤس برغم هذا ..

لقد انكمشت رغبتي تمامًا، وصار جسدي قطعة من الثلج.

فقط رحت أضرب خديها في غلظة وهي تئن ولا تفتح عينيها. أهزها من كتفيها في عنف .. أجذب خصلة شعر هنا وهنا ثم لا شيء .. هذا كل ما لدي ...

لا أستطيع ولا أرغب ....

ماذا دهاك ؟... هل سلطة يوتوبيا عليك مطلقة إلى هذا الحد؟.. هل صارت يوتوبيا تسيطر على هرموناتك وغدتك النخامية وغدتك الكظرية ونسيجك الكهفي وجهازك السبمثاوي؟... هل إلى هذا الحد تغلغلت فيك ؟

أهي سيطرة يوتوبيا، أم هي سلطة ضمير كاسحة تجعلك ترى كل فتاة هشة معدومة الحيلة كأنها صفية أخرى ؟

لن تعرف .. لن تعرف أبدًا ..

فقط أنت موقن من شيء واحد: فلتنم هذه الفتاة في سلام، ولتعد أنت إلى المذبح لتواصل انتزاع أحشاء الدجاج...

عندما عدت إلى ساحة المعلم طه لم أبحث عن الفتى ..

فليذهب للجحيم .. رحت أواصل عملي المرهق في تنظيف أحشاء الدجاج، وبعد ساعات تلاشت الكومة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولم تعد هناك سوى بضعة أكوام يتم نقلها إلى الأسواق ..

بمجرد أن تنتهي كومتك تتجه للباب الخلفي للساحة حيث يقف (خليل). يناول كل من يخرج نصيبه من الدجاج .. مجموعة أشلاء أعتقد أنها تكفي لعمل دجاجة كاملة.

مشـــيت بعض خطوات فوجدت الفتى يقف ينتظرني وفي يده نصيبه.

كـــان غارقًـــا في الدم والعرق.. بعض الدم كان دمه هو .. ناولنـــي مـــا فـــي يده بطريقة تقول (ها هو ذا ما أردته .. فخذه واخرس)..

قلت له محاولاً أن يخرج صوتي مزاحًا:

ــ"اليوم تأكل من عمل يدك للمرة الأولى"

قال من بين أسنانه:

ـــــ"أولا كــف عــن الدروس الأخلاقية فقد سمعت منها ما يكفينـــي.. ثانيًا أنا لن أذوق هذا الشيء .. لقد عافت نفسي الدجاج للأبد"

وهكذا عدنا صامتين إلى بيتي ..

لــن يعــرف ما حدث، لأن الفتاة ستكون (مسطولة) ولسوف تعتقد أن أي شيء رأته أو شعرت به أضغاث أحلام..

لا أريـــده أن يعــرف .. ليس لأنني أخشاه .. بل أخشى أن يعرف أنني عجزت عن إيذائه عندما كان هذا في وسعي ..

يبدو إنني عاجز عن قتلهما كذلك ..

بونابـــرت وقــف يومًا أمام الجنود الذين جاءوا للقبض عليه وفتح صدره وقال: أنا هو إمبراطوركم فاقتلوني !.. لكن الجند لم يفعلــوا .. هيبة الإمبراطور جعلتهم يجثون على ركبهم أمامه وهم يبكون .

لكن الفتى ليس بونابرت .. تبًا !... إنه مجرد حيوان شهواني مــن يوتوبــيا لا يملك أي قدر من الهيبة .. المشكلة أن يكون قد خلــق حاجــزًا نفســيًا من العبودية داخلي .. المشكلة أن أقتنع أنا نفسي بأنه أفضل وأروع وأكمل وربما أتقى..

أنا عاجز عن قتلهما ..

السؤال الوحيد هو : هل هذا لأن يوتوبيا أقوى مني، أم لأنني أقوى مني ؟

-4-

احنا شعبين ..شعبين ..شعبين
شوف الأول فين والتانى فين؟
وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت
انتم بعتوا الأرض بفاسها.. بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر..
والريحه سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

*　*　*

السرجاني هو أول من فاتحني في الأمر.

أنا لا أحب السرجاني فهو من كلفني قرنيتي. صحيح أن الحياة استمرت بعد ذلك لأن الخطوة التالية هي أن يفتك أحدنا

بالآخــر.. وأنا لن اقدر على قتله .. إذن الخطوة التالية هي موتي أنا .. لهذا توقفت الأمور عند هذا الحد ..

صحيح .. كل هذا صحيح لكنك لا تستطيع أن تحب من أتلف قــرنيتك مهما حاولت. هو كذلك لا يحبني لأن (عزة) كانت تميل لي.

الســرجاني هــو من جاء لي حيث كنت جالسًا خارج الدار أدخن البانجو جالسًا القرفصاء أفكر.

غرس السنجة التي يحملها في الطين الجاف، وجلس جواري وقال وهو يتناول اللفافة من يدي بلا اكتراث:

ــ"صباح الطعامة يا أبو جابر"

ونفث سحابة كثيفة من الدخان، وراح يتأمل الرماد المعلق في شكل قمع طويل. وقال كأنه رجل مهموم بعظائم الأمور:

ــــ"هــذه الفــتاة التي تعيش في بيتك .. لا أتكلم عن صفية طبعًا.. صفية على رأسنا من فوق .."

ــ"مالها ؟"

قلتها في اشمئزاز وأنا أعرف ما سيقول حرفيًا ..

قال وهو يعيد لي اللفافة محاذرًا أن يسقط الرماد:

ــ"تلزمك ؟"

ــ"ولو لم تكن ؟"

ــ"اليد البطالة نجسة "

ــ"تكلم بوضوح يا سرجاني"

الموضـــوع مهم فلا مجال لهذه اللغة التلغرافية التي نستعملها منذ عشر سنوات .. لغة من رأى كل شيء ولم يعد يدهشه شيء.. الآن مجال الشرح والتطويل ..

قال لي بهدوء:

ـ"يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لك الكثير من المال بدلاً من أن تكـــون عبئًا عليك. الصنف شحيح وقليل والموجود رديء .. أنت ترى وجه سمية البشع الذي يذكرك بالأبالسة .. هذه الفتاة ستكون مكسبًا لنا معًا.."

قلت في ضيق:

ـ"أنت أخذت عزة .. ألا تكفيك ؟"

ــــ"هذه مهنة شاقة .. مهنة قذرة تبلي ملامح الأنثى وجسدها تمامًا .. لابد من التجديد"

ابتســـمت فـــي سري .. لو أردت انتقامًا فأي انتقام أبشع من هـــذا؟.. فتاة يوتوبيا تجد نفسها في هذا الوسط بين هؤلاء. لكني لا أريـــد ذلك .. سمه انتصارًا على نفسي أو انتصار يوتوبيا علي .. فقط أعرف أنني سأحميهما ما دمت حيًا وما داما بيننا ..

قلت وأنا أناوله لفافة التبغ:

ـ"هي لا تحب هذا الكار .. هي حرة يا أخي.."

ـ"كما تحب .."

ثم فكر قليلا وأضاف التهديد الذي عرفت أنه آت لا محالة:

ــــ"بيني وبينك .. نحن لا نعرف من هذان حقًا .. أنت قلت كلامًـــا وألقـــيت لنا ببعض الفلوك لنتشاجر عليه كالكلاب. سمية

تحكي قصة مختلفة .. هذان يبدو عليهما الثراء ولتقطع ذراعي إن كانا عاشا يومًا واحدًا من الجوع قبل قدومهما .. من أين جاءا بكل هذا الفلوك ؟... أنت تعرف كما أعرف أن هذين من يوتوبيا .. لا تقل لي إنهما كانا يعملان هناك بل هما من أصحاب الدار .. أيام كانت هناك كلاب كان عندي كلب يحرسني ويأكل من طعامي وينام تحت سقف داري، لكن دعني أؤكد لك أنه لم يبد مثلي في أية لحظة !.. عاش كلبًا ومات كلبًا .. الغبي ابن الغبي هو من يخلط بين الكلب وصاحبه. هذان ليسا كلبين .. هذان يملكان الكلاب .. فلماذا جاءا هنا ؟.. يمكننا أن نتخيل !.. "

قلت دون أن أنظر له:

ـ"قصّرْ !"

ـ"سأقصر .. أنت تعمل مع (عبد الظاهر).. لو عرف أن اثنين من يوتوبيا يعيشان تحت سقف بيتك فماذا سيفعل ؟.. وماذا عن (بيومي) ورجاله ؟.. الكل سوف يرقص طربًا وسوف تأتي المنطقة كلها إلى دارك لأخذ حقوقها .. صدقني يا صاحبي لا أحد يريد لك الأذى، ولا أحد يقبل أن تمس شعرة من صفية .. صفية عزيزة علي كأنها .. كأنها سمية ابنة المرحوم أخي .."

قلت في غيظ ساخر:

ـ"نعم .. أنت تحرس سمية وترعاها جيدًا فعلاً .. كلنا يعرف هذا"

نظر لي ولم يتكلم، وانصرف دون أن يعيد لي اللفافة ..

* * *

لم أكن أحمل هم (بيومي).. كنت احمل هم (عبد الظاهر)..
بيومـــي وشلته يمثلون الأعداء، وهم خطر في كل وقت وكل زمن، بينما (عبد الظاهر) وشلته هم مصدر حمايتي ونفوذي، ولو انقلبوا علي فأنا ضائع ..
عبد الظاهر كان هناك في أنفاق المترو يناقش خطة البايرول للمــرة الألــف .. منذ أعوام وهو لا يكف عن مناقشة هذه الفكرة وأنا أقول له إنه مجنون ..
ــــ"هؤلاء الناس قد يمزحون في كل شيء لكن لا مزاح في البايرول"
ــــ"هــذا مــا يجعل الخطة ممتازة، وتضعنا في موقف قوي حقيقي"
قلت له ساخرًا:
ــــ"إن المخدرات أطارت صوابك يا بن الــ (.....) .. تعتقد أنــك تكــافح الإنجليــز في واحد من تلك الأفلام القديمة الأبيض والأسود .. دعك من هذا الهراء وفكر في كيفية العثور على كلب جديد"
عــبد الظاهــر كان بلطجيًا لكنه (جدع) حار الدماء .. ليس مجرد ضبع تثيره رائحة الدم مثل بيومي .. لهذا فضلت أن أكون معه من البداية ..
كــان بعضــنا يجلــس فــوق عربة مترو يلعب (البرغوتة) والــبعض جالس في ركن من المحطة يشم الكلة .. إنها الظهيرة لكن أنفاق المترو ليل دائم أبدي .. ربما لهذا تشعرنا بالألفة.

جميل أن تعرف أن كل هؤلاء معك .. يمكنهم أن يهبوا لنصرتك لو تعرضت للخطر .. لهذا أعرف أن صفية سوف تتزوج واحدًا من هؤلاء. لا سبيل لها للحياة غير هذا .... مخيف بما يفوق الوصف أن ينقلبوا عليك ..

قال لي (عبد الظاهر) وهو يدقق في وجهي بعينيه الواسعتين العسليتين اللتين توحيان بالجنون:

ـ"هناك كلام كثير عنك يا صاحبي في الآونة الأخيرة .. "

رفعت وجهي في توتر ونظرت لوجهه المترقرق في ضوء المشاعل..

ماذا ؟..

قال في ثبات:

ـ"أولاً أنت فررت من مشاجرتنا الأخيرة مع بيومي .."

ـ"أنت تعرف أنني ضعيف ولا قبل لي بالانتصار على هؤلاء .. كنتم تنهزمون وكان بوسعي أن أبقى، لكنك كنت سترثيني الآن باعتباري شهيد الجدعنة .. هل كنت تفضل هذا ؟.. على الأقل أنا هنا حي أرزق وأتلقى اللوم منك.. لا تنس أن سليمان مات فلم تستطيعوا الدفاع عنه .. "

لم تكن هي أول مرة أفر فيها ولن تكون الأخيرة فلماذا يهتم بالأمر ؟

قال من جديد:

ـ"وهذان اللذان في دارك ؟.. الكلام كثير عنهما .. يقولون إنهما من يوتوبيا وإنك تنكر هذا في إصرار .. ما الذي تدبره ؟"

لا توجد أسرار في هذه المنطقة ... هذا واضح ..
أخشى ما أخشاه يحدث الآن ..
فتحت كفي وأصابعي ورحت أقسم:
ـــــ"والله العظيم .. والله العظيم .. أنا لا أعرف من أين جاء هذان .. فقط كانوا سيفتكون بهما وأنا لم ...."
قال مقاطعًا:
ـ"كف عن القسم .. كل الناس تقسم طيلة الوقت .. اسمع .. نحن نريدهما .. سوف نعرف أصلهما وفصلهما .. لو اتضح أنهما مـــن يوتوبيا فلسوف نلعب بهما لعبًا ممتازًا .. لن يجدهما الذباب الأزرق، ولـــربما ساومنا عليهما .. لو كانا مسكينين مثلنا لوجدنا لهما عملاً وحياة .."
رآني مترددًا فقال في حزم:
ـ"جابر .. فكر جيدًا .. لا تخسر كل شيء من أجل كلبين .. لا أعرف أهميتهما لك لكنهما بالتأكيد ليسا أكثر قيمة من صفية !"
ثـــم نهض وبصوته الجهوري صاح في الرجال المتفرقين في المحطة:
ـ"هلموا !.. أريد هذه المشاعل في مكان واحد .. أحد رجال بيومـــي هنا في الأنفاق ومعه بانجو .. من منكم يأتيني به ويظفر بنصف ما معه ؟"
عـــندما غـــادرت المحطـــة كنت أعرف يقينًا أنني يجب أن أتصرف الليلة ..

لقـــد اشتممت أنوف كثيرة الرائحة، وتجمع الذباب حول العسل لو كان ما آويه في داري عسلاً.

لو أردت لهما الحياة فليفرا الليلة ..

فليفرا فلا يقع علي لوم سوى لوم الغفلة والغباء ..

الليلة قبل أن يحدث شيء آخر ..

* * *

قلت لهما إنهما سيرحلان الليلة، وخرجت أدبر أمري .. هناك الكثيـــر من الترتيبات يجب أن تتم . عدت لهم بعد ساعتين وكانا مســـتعدين كمـــا نصحتهما. أحكما مسح وجهيهما بالقذارة وثيابهما صـــارت أقذر .. الغريب أن صفية أختي بدت نظيفة لامعة براقة وإن لم تبد مسرورة جدًا، حتى خطر لي أنها ربما تميل للفتى ..

لا .. ربما هي تميل للفتاة باعتبارهما من السن ذاتها تقريبًا.. سوف تفقد الصديقة الوحيدة التي ظفرت بها في حياتها ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت الليلة فلا تضايقني من فضلك ..

دعني أمارس آخر لحظات لي في الحياة ..

دعني أجرب أن احلم ...

[illegible]

قال مقاطعا:

* * *

[illegible]

لا .. [illegible]

[illegible]

المحطة:

[illegible]

عندما غادرت المحطة كنت أعرف يقينا أني [illegible]

[illegible] الليلة ..

الجزء الخامس

الصياد

-1-

سوف نرحل هذه الليلة ..

(جابـــر) اخبرنا بهذا .. قال إن الشكوك تتكاثر والذباب يحوم وعلامات الاستفهام تتكاثف والأقاويل تزداد و.. و ..... إلى آخر هذا الهراء ..

وسوف نرحل هذه الليلة ..

نرحل ؟

ربما إلى أعلى .. ربما إلى أسفل .. ربما إلى يوتوبيا ..

لـــو لـــم نتحـــرك في اتجاه عمودي فهناك أمل في أن نظل أحياء..

سوف نرحل هذه الليلة ..

* * *

عند ساعات المساء الأولى قال لنا إن علينا أن نعد كل شيء. ســـوف يتغيب ساعتين ثم يعود ليجدنا متأهبين. نعد كل شيء ؟.. هل يوجد معنا شيء نعده ؟. بالطبع لا.

لكن (صفية) قالت لنا إن الإعداد هنا يعني المزيد من القذارة .. أحضرت بعض الشحم الأسود وراحت بلمسات أستاذية تضيف القذارة على وجوهنا . أعطتنا ثيابًا أسوأ مما كان علينا ..

قلت لها وهي تمسح وجهي:
ـ"ماذا ستفعلين بصدد هذا الدرن ؟"
قالت كأن الأمر لا يعنيها:
ـــ"ســوف أتعاطـــى منقوع الأعشاب الذي تعده أم (عبير)، وأدفئ صدري، وفي النهاية سأموت وسط بركة دم .. هذا هو كل شيء .. لكن (جابر) لا يصدق هذا .. يعتقد أنني سأشفى"
ـ"هناك أدوية للدرن ..."
ـ"نعم .. وكلها عندكم .. ماذا تتوقع أن أفعل ؟"
أردت ان أكـــذب .. أقول لها إنني سأعود وسأجلب لها بعض الدواء من أبي .. أبي الذي لا يمكن تعاطي قرص أسبيرين في أي موضـــع مـــن مصر إلا عن طريقه، لكني وجدت أن هذه أسخف كذبة ممكنة. يمكنني أن اترك لها تذكارًا لكنه لن يكون علبة دواء.
لما أدارت صفية ظهرها لنا قلت لجرمينال همسًا:
ـ"اسمعي .. أريد أن تغادري الكوخ عشر دقائق.."
نظرت لي في حيرة ثم تقلص وجهها وهتفت مشمئزة:
ـ"هل تمزح ؟... هل هذا هو الوقت المناسب ؟.. "
ـــ"لابد لي من تذكار . قلت لك إن لها مذاقًا مختلفًا مثيرًا .. هذه آخر فرصة في حياتي لتجربة هذا المذاق .. لو رحلنا لانتهى الأمر .. "
كـــان وجههـــا الآن فـــي أقـــبح صـــورة يجمع بين التوحش والاشمئزاز والشراسة. أبشع نمر غاضب رأيته في حياتي :
ـ"نحن تحت رحمتهم يا حلوف !..."

ـ"أعرف كيف أجعلها تصمت .. والآن أخرجي !"

نظـــرت لــــي في كراهية عمياء. لم أعرف من قبل أنها تغار علـــي لهـــذا الحد. أعتقد أن الأمر يتعلق بكبرياء الأنثى أكثر منه بالغيـــرة. في يوتوبيا تعرف أنني مع فتاة أخرى كل يومين تقريبًا فـــلا تتكلم، لكن الأمر بدا لها هنا مهينًا خاصة أنني لم ألمسها منذ جئنا.

انفردت بـــ (صفية) على ضوء المشعل، ومنذ اللحظة الأولى عرفتُ ما أريد و....

لا ..

هذا ليس حقيقيًا !

إنها تقاوم بشراسة وعنف .. تقاوم كثور بري هائج.. تخمش .. تضــــرب .. تركل .. تبصق .. تصرخ .. تولول .. تتشنج .. تبكــــي .. تسب .. تلعن .. تعض ... كنت احسب الأمر أسهل من هـــذا بكثيـــر. المفترض أنها ستذوب لفكرة أنني اشتهيتها. رجال الأغـــيار ليســـوا رجـــالاً حقًا . لقد قضى الجوع والطعام الفاسد والجوســـيبول علــــى رجولتهم، ونحن نظفر بنسائهم بسهولة طيلة الـــوقت فــــي يوتوبـــيا، بيـــنما يكتفــــي رجالهم باصطناع الفحولة والجبـــروت .. أليســـت الـــرجولة حيوانًا يحتاج إلى تغذية جيدة ورياضة وشمس ساطعة ؟.. إذن هم لا شيء .. لا شيء ....

لكنها قاومت بعنف وبسالة، وكنت أنا معتادًا على العنف على كـــل حال لذا قيدتها تقييدًا بشرائط مزقتها من قميصي القديم الذي

نزعته. كممت فمها فخرست وأراحني هذا من فيض بكتريا الدرن المنبعث من أنفاسها على كل حال ..

اغتصـــاب مريضة سل !.. سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ. ربمـــا أحكـــيها مرارًا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين لو عدت سالمًا.

مـــددت يـــدي بقطعـــة قماش إلى سطل من الماء ملأته هي، ورحـــت أبلـــل قطعة القماش وأنظف وجهها وقدميها لتبدو بشرية نوعًا ... بالواقع لم أمس جزءًا منها قبل أن أنظفه بعناية ...

رحت أردد في مزيج من نشوة وكراهية وأنا انتهي:

ــ"يا لقذارتك !... يا لقذارتك !.. هه هه !"

(صراخ مكتوم .. شهيق...)

ــ"ليس فقركم ذنبنا .. هه هه ... ألا تفهمين بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم ؟.. هه هه ... "

(أنين .. بكاء ..)

– "عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص كان آباؤكم يقفون أمام طوابيـــر الرواتب في المصالح الحكومية . ثم لم تعد هناك مصالح حكومية .. لم تعد هناك رواتب .. هه هه ... "

(شهيق .. حشرجة ..)

ــ" أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرًا لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. هه هه ... ما ذنبنا نحن ؟"

(دموع .. نهنهة ..)

ـ"عندما هب الجميع ثائرين في كل قطر في الأرض، هززتم أنتم رءوسكم وتذرعتم بالإيمان والرضا بما قسم لكم .. هه هه ... تدينكم زائف تبررون به ضعفكم.. هه هه ... "

(عواء .. غرغرة ..)

ــــ"أنتم اقل منا في كل شيء .. هذه سنة الحياة .. يجب أن تقــبلوها .. لم يعد أحد قادرًا على تغيير أي شيء.. شيء .. شيء .... شيء .. شيء .. شيء .. هه .. هه .. شيء .. هه .. هه.. شيء .. !"

(توسل مكتوم .. هستيريا ...)

كنت قد انتهيت .. صار جسدي كبالون خاو من الهواء، وفي هذه اللحظة بالذات سمعت جرمينال تقول من وراء ظهري:

ــــ"ألــم تنــته بعــد أيها الخنزير ؟.. أخوها سيعود في أية لحظة.."

ارتمــيت مــنهكًا علــى الأرض جوار الفتاة المنهارة، وقلت لاهثًا:

ـ"صحيح .. أخوها .."

ومــن جيبي أخرجت المدية .. المدية التي سرقتها من المذبح عــندما كــنا نــنظف الدجاج . وضعتها تحت عنقها وقلت لعينيها الجاحظتين:

ــــ"اســمعي .. ولا حرف عما حدث هنا .. لو أن حرفًا قيل فلسوف ....."

هتفت جرمينال:

ـ"أنت لن تقتلها .. هي مجرد طفلة !"

ــــ"ومــن تحدث عن قتلها ؟.. سأقتل (جابر) يا صغيرة .. سترين المدية تمزق أحشاءه قبل أن يفهم معنى كلامك .. ستعيشين وحــيدة للأبــد ولسوف تصير حياتك كلها تكرارًا مملاً لما حدث الآن، لأن (جابــر) لــن يحضر لك الطعام بعد اليوم.. (جابر) لن يحميك .. "

ظلت صامتة فعدت أكرر السؤال:

ـ"هل فهمت ؟"

وبهــدوء أزحــت اللــثام عن فمها .. وفككت قيودها. أمرت جرمينال بأن تعنى بها قدر الإمكان لتبدو بشرية ..

قالت جرمينال وهي تبصق على الأرض:

ـ"هل استرحت يا ابن الــ (...) ؟"

قلت في برود:

ــــ"استمري .. أنت تكتسبين لغتهم وعاداتهم يومًا بعد يوم . هذا مفيد لنا كما تعرفين"

-2-

إلا الحزن والصمت ..

يمكنك أن تغير معالم جريمتك لكن الحزن والصمت يبقيان ..

هكـذا ظل (جابر) ينظر في فضول لأخته وهو يعد حاجيات الفـرار. لكن الفتاة لم تتكلم. إنها باسلة فعلاً.. دعك من أنها كانت صـادقة في مقاومتها لي وأنا لم أر قط فتاة صادقة في مقاومتها. هـناك دومًا لمسة تصنع وادعاء. هذه الفتاة كانت تكرهني فعلاً.. تكره أحشائي كما يقول الأمريكان ..

قال (جابر) بعد قليل وعلى وجهه علامات الجدية :

ـــ"أنا لا أثق بقسمكم لأنكم تتعاملون معنا كأننا تحت مستوى الآدمـية .. وتكذبـون علينا بالسهولة التي يكذب بها المرء على خروف، لكني سأجرب لمرة واحدة .. ما سترينانه سيبقى سرًا .."

ثم أردف وهو ينهض :

ــ"لقد اضطررت لإجراء صفقات كثيرة .. كلفني هذا مالاً.."

قلت في ضيق:

ــ"إن أبي ...."

رفع يده في كبرياء وقال:

ــ"لا أريد سماع كلمة عن أبيك وحياة أبيك ..والآن هيا بنا ."

وتناول أداة غريبة عبارة عن قضيبي خشب متعامدين كأنهما صليب ..
وســط الظــلام مشينا في الحارات والأزقة المتسخة التي لا ينيرها إلا مشعل هنا أو هناك..
وسط باعة السمك الفاسد ..
وسط باعة المخدرات الرخيصة ..
وسط باعة الأجساد ..
وسط الشباب الذين يمزقون بعضهم في مشاجرات لا تنتهي .
وسط الأفاقين والنصابين وباعة الأعشاب ..
وسط برك الماء الآسن وبقع الكيروسين ..
وسط الترنشات التي لم تكسح منذ شهرين..
وسط جثث الكلاب التي تم تجريدها من اللحم ..
وسط باعة الأجهزة المسروقة ..
وســط الصــبية الجالســين يلعبون القمار على قفص دجاج مقلوب ..
وسط كل هذا نبتعد ..
ثلاثة أشباح لكنها لا تجلب الرعب بل تشعر به..
جــرمينال لا تكف عن هرش رأسها وصدرها كأن هذه هي علامة النجاة .. أنا منكم .. أقسم بالله أنني منكم !

* * *

هناك على جدار مهدم جلسنا ..
قال لي جابر وهو يشعل لفافة تبغ:

ـــــ"أعتقد أن هناك عيونًا كثيرة تراقبنا .. لذا سيتم الأمر كما يلـــي .. ســـوف تـــدور حول الجدار كأنك تريد قضاء حاجتك ثم تركض عبر الخرابة منحنيًا .. هل تعرف عدو الظليم ؟.. لا ؟ .. هـــذه فرصة كي تعرفه .. عندما تبلغ الناحية الأخرى من الخرابة انتظرنا .. نحن سنلحق بك بذات الطريقة .. "

كـــنا جالســـين في الظلام كما قلت لك، فرأيت (جابر) ينزع سترتي المتسخة عن كتفي فيضعها على قطعتي الخشب فتبدو كأن هـــناك من يلبسها على كتفيه. فهمت .. مع الظلام والمسافة يشعر مـــن يراقبنا أننا ما زلنا ثلاثة. هكذا وثبت لأدور حول الجدار في اللحظة التي رفع فيها رايته الغريبة مرفرفة.

رحت أركض عبر الخرائب وقدمي تلتوي من تحتي وأنفاسي متقطعة . على الأقل لن تطاردني الكلاب المسعورة لأنه لا وجود لهـــا.. أركض في الظلام لا أعرف إن كان ما أدوس فيه صخورًا أم فضلات بشرية أم جثثًا متعفنة أم مجرد غبار ..

وصلت إلى النهاية فوجدت جدارًا آخر مهدمًا .. وقفت جواره ألهث ...

بعـــد قلـــيل ســـمعت صوت لهاث آخر .. ورأيت جرمينال تركض وهي منحنية لتلحق بي ..

وقفت جواري وهي عاجزة عن التنفس ..

ســـرعان ما ظهر (جابر) وهو يركض بدوره. لقد ترك سترة واحـــدة معلقة هناك .. وهي تعني أن اثنين يقضيان حاجتهما بينما الثالث ينتظرهما ..

هــو ذا يتجه إلى وكر قذر نهبط إليه منحدرين على درجات محطمــة .. وفــي نهايــة الساحة ترى حافلات عتيقة يسيل منها الزيت والكيروسين وتهدر بلا انقطاع ..

ـ"أيوه الساحل الشمالي !.. أيوه يوتوبيا !!"

هذه الكلمات جعلت قلبي ينحشر في حلقي ..

الــوطن .. برغم كل شيء هو الوطن ... أنا الذي لا انتمي لمكان ولا أشخاص ولا مبدأ ..

ســقط قلبي في بطني .. معنى هذا أن هناك سبيلاً للعودة .. لكــن مــاذا عــن الحراس ؟.. ماذا عن المارينز والوصول إلى يوتوبيا ؟.. رباه !..

من العسير أن تقترب من يوتوبيا من دون تصريح .. سوف يفرغ فيك المارينز طلقات بنادقهم ..

لن يصغوا لك وأنت تحكي قصصًا معقدة عن تجربة الرجولة وكل هذا الهراء ..

لو لم تتم مكالمة مع أبي فلا جدوى ...

* * *

الــرحلة تنطلق وأنا أرقب (جابر) الجالس صامتًا في الظلام أمامــي .. كــل شــيء فــي الحافلة يئن ويصر ويهتز.. رائحة الكيروســين تــزكم الأنفــاس. أختلس النظر إلى جرمينال ثم كل الوجــوه التعسة للعمال الذاهبين للعمل في مستعمرات الساحل .. الفــرانين وجامعي القمامة وصائدي الفئران ... كلهم سيء التغذية ممتقع الوجه .. كلهم مهزوم .. كلهم واهن .. كلهم ..

سـوف يـبدأ عملهـم فـي ورديات الليل .. سيعملون عشر ساعات متواصلة ثم يعـودون . معنى هذا انهم يقضون بين ظهرانيهم أقل من سبع ساعات ..

من الخير لهم أن يموتوا هنا والآن.

ربـاه !.. فلوجستين !.. كم أتحرق شوقًا له !.. لو سارت الأمور كما أتمنى فلسوف أتذوقه من جديد خلال ثلاث ساعات أو أقل ..

أرقـب معـالم الطريق ونحن نتجه إلى الاسكندرية .. حتى بعلبة الكبريت المعدنية هذه نحن نتحرك للأمام ...

معـالم السـاحل الشمالي .. وجه (جابر) الصلب يرتسم على معـالم الطريق المظلم .. فقط تلتمع عليه أضواء الطريق من حين لآخر ..

ما هي خطته ؟ ..

الاحتمال الأخطر انه يرتب لنا مقلبًا ما .. ربما يريد التخلص منا بعيدًا عن أرضه .. جثتان في الصحراء ولا يعرف أحد من فعلها .. للأسف ليس لدي حل إلا أن أثق به ثقة مطلقة ..

لماذا ينهض هنا ؟... لماذا يتبادل الهمسات مع السائق ؟

إنه يعود ليجلس جوارنا وإن بدا أنه ينتظر شيئًا ..

فجأة توقفت الحافلة وسمعته يقول لنا في الظلام:

ـــ"هيا بنا !!"

ماذا تقصد ؟

نحن في قلب اللامكان بالمعنى الحرفي للكلمة ..

-3-

الحافلـــة تـــنطلق مبـــتعدة بمن فيها.. بقعة ضوء تشحب في الظلام .. سفينة أمل تمخر مبتعدة لتتركك في جزيرة قاحلة تموت عليها ...

ظـــلام اللـــيل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار .. أعـــرف أننـــي أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكنه يملك عنصر المبادأة والمفاجأة ويعرف الأرض ...

لـــو تســـرعت بالفـــتك به فلربما اتضح أنه بريء وأكون قد أضعت فرصتنا ..

(جابـــر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصـــبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

الأســـوأ كان هناك بالفعل وهو رجلان تبدو عليهما الشراسة والقوة ومسلحان .. تبادلت وجرمينال النظرات .. هل حان الوقت أخيرًا ؟

لكـــن ثلاثة الرجال كانوا راكعين على ركبهم ينبشون الرمال بأظفـــارهم ومدي صغيرة على ضوء كشاف واهن .. أحدهم نظر

لـــنا في شراسة كما يفعل كلب تفاجئه أثناء النبش عن عظمة، ثم عاود العمل..

قال أحد الرجلين دون أن ينظر لنا:

ــ"هل أنت ضامن لهما يا (جابر) ؟"

قال (جابر) وهو يواصل الحفر :

ــ"مثل نفسي .."

ثـــم مد يده ودس أشياء في يد الرجل .. أعتقد أنها مخدرات فالمـــال لا يـــبدو كـــذا .. فـــتحت فمي لأتكلم فصرخ (جابر) في وجهي:

ــــــ"اخـــرس يا (حنفي) !!.. عندما تدخل حاول أن تسرق لنا بعض الفلوجستين .. إن (حبارة) و(شيحة) لم يجرباه قط .."

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عـــنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر :

ــ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

أنا (حنفي) وهي (نفيسة) ؟؟ .. لا أحب الاسمين لكن لا أعتقد أن هذا هو الوقت الملائم. على كل حال اندسسنا في الفتحة ورحنا نهـــبط الـــدرجات الخشـــبية في الظلام غير عالمين إلام تقودنا.. وسمعت (جابر) يقول للرجلين:

ــ"سأوصلهما لأقرب نقطة ثم أعود .. انتظراني "

ثم سمعت جسده ورأيت ضوءه ينزل وراءنا .. فما أن صار بيننا في قاع البئر حتى صحت:

ــ"ماذا يحدث هنا ؟"

قال وهو يتقدمنا عبر ممر مظلم:

ــ"أنفاق !... منذ البداية هناك أنفاق سرية يمكننا بها الدخول إلى (يوتوبيا) لسرقة ما نريد .. من السهل أن تغادر (يوتوبيا) لكن من المستحيل أن تدخلها من دون بطاقة (عبودية).. قام هؤلاء البلطجية بحفر هذه الأنفاق وهم يؤجرونها لمن يدفع .. الثمن يكون مالاً أو مخدرات .. طبعًا من الواضح أنني أقنعت هذين أنكما فقيران مثلنا وأنكما تريدان تجربة السرقة .. لو قلت إنكما من أهل (يوتوبيا) لمزقاكما في اللحظة ذاتها.. "

هتفت جرمينال:

ــ"أي أن هذا النفق يقود إلى ..."

ــ"إلى قلب (يوتوبيا).. جوار ذلك (المول) الكبير الذي نسيت اسمه .."

ــ"إليت مول"

ــ"نعم .. حيث ينتشر أمثالكم كالضباع بحثًا عن فريسة .. سعار الاستهلاك واللعاب يتساقط على الأرضية الزلقة البراقة. بينما العبيد والجواري من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم. عبد يجلب لكم العصير.. جارية تساعدكم في اختيار ثوب مناسب. خصي يقف على باب المرقص. كل شيء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم"

قلت في برود:
ـ"تشبيهاتك شاعرية"

أردف قائلاً:
ـــ" سوف تخرجان هناك وأعتقد أنكما لن تجدا صعوبة في الوصول لداريكما .."
قلت في انفعال:
ـ"لماذا تفعل هذا كله ؟"
فقد بدا لي مبالغًا بحق في هذا الذي يفعله...
ربما يتضمن المعروف جزءًا سلبيًا هو ألا يبلغ عنا ..هذا سهل .. لكنه تجاوز هذا الحد إلى الجزء الإيجابي .. أنفاق وبلطجية ودفع مال وتسلل ليلي .. الخ ...
لا أحد يفعل شيئًا من غير ثمن .. الثمن قد يكون مالاً .. قد يكون منصبًا .. قد يكون جسدًا .. قد يكون إحساسًا بالتفوق .. قد يكون قصة تحكيها لأصدقائك وعيناك تلتمعان تيهًا .. قد يكون تقديرًا للذات لا تستحقه ..
هناك ثمن دائمًا ...
وأنا لا أقبل الشيء قبل أن أعرف ثمنه...
فكر حينًا .. توقعت ردًا بلاغيًا طنانًا على غرار (لأننا أفضل منكم) أو (لأنني لا أحب الدماء).. الخ .. لكنه اكتفى بأن هز رأسه وقال:
ـ"لأنني أريد ذلك .. "

ثـــم ابتســـم وغمغم بشيء في الظلام فسألته عما يقول .. قال بصوت أعلى وهو يواصل طريقه:

ــــ"كـــان عـــندنا شاعر اسمه (عبد الرحمن الأبنودي).. هل سمعتما عنه ؟"

ــ"لا .."

ــــ"بالطـــبع لـــم تسمعا عنه .. كان هذا الشاعر يقول: احنا شـــعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الاول فين والتانى فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت"

لـــم أفهـــم شيئًا .. فقط أفهم أنه يغلي من الحقد الاجتماعي .. هذا هو كل شيء ..

قلت له في الظلام:

ــ"برغم كل شيء .. أنت إنسان نبيل .. "

لم يرد وواصلنا تقدمنا .. مشينا نحو عشر دقائق..

بقعـــة ضوء تتحرك عبر النفق .. تذيب ظلامًا ثم تغيب وسط ظلام جديد ..

صوت الخطوات ..

صوت اللهاث ..

صوت قطرات العرق تتساقط على الصخر ..

* * *

وفـــي الـــنهاية أدركـــت أننا في قاع بئر أخرى وأن درجات صـــاعدة تقـــودنا للسطح.. هناك صخور مكومة بحيث تسهل لك

الوصول لأسفل الدرج ..بصعوبة منعت نفسي من الصراخ فرحا وجرمينال راح صدرها يعلو ويهبط ..

قال (جابر) وهو يشير بالكشاف لأعلى:

ـــــ"لأسباب واضحة لن ألحق بكما .. أنتما في أمان الآن .. وداعًا .. فقط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا .. فلن أكون موجودًا المرة القادمة .."

قالت جرمينال في تأثر:

ـ"أنت رائع يا (جابر).. شكرًا لك .."

لم يرد واستدار ليرجع وضوء الكشاف يحيط به كأنه رؤيا ..

لابد أنه ظل محتفظًا بتأثره حتى اللحظة الأخيرة ..

لابد أن ابتسامته الخافتة لم تفارق شفتيه بينما وجهه يهوي ليتمرغ في التراب ..

لابد أنه لم يذق الدم الذي سال من شدقيه ..

لابد انه لم يدرك أنني التقطت ذلك الحجر وهويت على مؤخرة رأسه بأقوى ما استطعت ..

اضطررت لأن أقلبه على ظهره فسال الدم كالنهر من الفجوة الدامية التي صنعتها منذ ثانية..

عينه التالفة تنظر لي في ثبات بينما تحولت نظارته إلى فتات..

التقطت المدية .. المدية التي سرقتها من المذبح .. من الغريب أن مدية أخرى تطل من حزامه .. لابد أنه كان يخافنا بالقدر الذي كنا نخافه به وأراد أن يؤمن نفسه ...

صرخت جرمينال في هستيريا:

ـ"لماذا فعلت ذلك ؟.. لقد ساعدنا !"

قلت وأنا أقوم بما يجب أن أقوم به:

ـــ"وانتهى دوره عند هذا الحد !.. إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن .. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار .. "

للأسف لن أستطيع أن أحمل جسده صاعدًا الدرجات .. كما أنه مات على الأرجح فلن يوفر مصدرًا للتسلية .. إذن لم يعد يهمني من أمره سوى هذا الشيء الذي أخذته ولففته في السترة المتسخة التي منحها لي ..

لم يكن هناك غراب .. لم يكن هناك غراب ..

لماذا تذكرت هذا الآن ؟

تركته حيث هو وصعدت الدرجات .. ستكون كارثة لو كان قد خدعنا ..

-4-

لكن انتم خلقكم سي الملك
جاهزين للملك..
ايديكم نعمت من طول ما بتفتل لياليـنا الحلك
يا عم الضابط احبسنى
سففنى الحنضل واتعسنى
رأينا خلف خلاف..
احبسنى او اطلقنى وادهسنى
رأينا خلف خلاف

عبد الرحمن الابنودى

*　　*　　*

فتحة بين الأعشاب يصعب أن يراها من لا يبحث عنها.. تغطي الفتحة قضبان متعامدة جدل أحدهم العشب بعناية بينها لكننا عندما أزحنا القضبان وأخرجنا رأسينا، شممنا رائحة هواء البحر .. شممنا الليل المخلوط بالعطر واللحم البشري والفلوجستين ..

شممنا رائحة الدولارات وبطاقات الائتمان والخمور الباهظة

رأينـا أضـواء يوتوبيا تحيط بنا .. على بعد خطوات مول (إيلـيت) المفضـل عندي .. أرى لافتته الملونة وزحام السيارات حوله .. نحن إذن في الحديقة الخلفية للمول .. نعم .. أرى تمثال المستحمة العارية الذي طالما حلمت بمضاجعته وأنا صبي ..

حمدًا لله !... لقد نجونا ..

سيكون صـعبًا أن نفسـر لمـن يرانا أننا لسنا من الفقراء المتسـللين .. الأصـعب أن أخفـي هذه اليد التي بدأ الدم يتساقط مـنها.. لكننا سنقابل مصريين أو إسرائيليين وهؤلاء يمكن التفاهم معهـم .. بيـنما لا يمكـن الـتفاهم مـع المارينز الذين يطلقون الرصاص ثم يتكلمون ..

سـاعدت جرمينال على الخروج ووقفنا هناك في البرد الذي يبعثه هواء البحر، وسط أضواء المساء الملونة وتعانقنا ..

لقد تمت المغامرة ونجونا !

لقد دخلنا الجحيم وعدنا منه. دسسنا رأسينا بين فكي التمساح وخرجنا ..

قلـت لهـا ونحن نشق شوارع (يوتوبيا) شبه الخالية في هذه الساعة:

ـ"يمكن القول إننا لم نفقد أي شيء .."

قالت وهي تشهق في انفعال:

ـ"سوى ساعات قاسية"

ـ"لابد أنهم قلبوا الدنيا علينا"

ـ"سوف يفهمون ويغفرون"

قالــت وهــي تــرتجف كلمــات لم أتبينها فسألتها أن ترفع صوتها.. قالت:

ــ" احنا شعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الأول فين والتانى فــين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت .. ألم يكن شاعره يقول هذا ؟"

ــ"بلى .. وهو صادق على طول الخط !"

* * *

كانت الاحتفالات صاخبة بعودتنا..

في البداية هناك طبقة واهنة من اللوم والتبكيت .. طبقة ذابت على الفور ..

ثم يبدأ الاحتفال الحقيقي بالبطلين العائدين ..

أنهــار مــن الخمر والفلوجستين سالت .. حكيت قصتنا ألف مرة وفي كل مرة أضيف تفاصيل جديدة تثير الخيال .. لقد صرت رجلاً .. ذهبت إلى هناك وعدت بيد أحدهم ..

كــنت أحكي لهم عن (جابر) الأحمق .. (جابر) الساذج الذي لم يستطع أن يفهم قواعد اللعبة ..

حكــيت لهــم عــن صفية المسلولة التي قاومت كأنها الملكة كليوباترا . يجب أن يتناسب حجم المقاومة مع قيمة ما يدافع المرء عنه .. بالنسبة لحالتها لم يكن هناك داع لمقاومة من أي نوع..

قال راسم وهو ينفث الدخان:

ــــ"يــتوقف الأمر على قيمة ما يدافع المرء عنه بالنسبة له وليس بشكل مطلق .. لو رأيت أمي وهي تدافع عن الفأر الصغير

الألـــيف الـــذي تـــربيه عندما أراد أبي أن يلقي به في البالوعة، لحســـبتها تدافع عن أيقونة مقدسة .. بالنسبة للفتاة كانت تدافع عن أهم شيء لديها .."

ـ "عن بكارتها ؟"

ـــــ "بـــل عن إرادتها .. عن حرية اختيارها .. هذا هو فأرها الخاص"

أطلقـــت سبة بذيئة .. تبًا لك عندما تعبث الماريجوانا بخلايا مخك. إنها تجعل الناس أكثر ظرفًا لكنها تجعلك أكثر تحذلقًا وميلاً للتفلســـف .. تجعلـــك ابن كلب حقيقيًا .. لكل واحد منا فأره الذي يعتبره أثمن شيء في العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير لكـــنه بالنسبة لك أهم شيء في الوجود. ترى ما هو فأري المدلل الأليف؟

أنا فأري المدلل الأليف!

لوحت بالذراع التي قمت بتحنيطها وتجفيفها:

ـ "في صحة جابر"

ـ "وصفية"

ـ "والسرجاني .."

ـ "أجدع ناس.."

ومـــن جهـــاز الهـــاي فـــاي تـــدوي أغنية جديدة من أغاني الأورجازم:

"ضعي عنقك على الصخرة المقدسة ..

ضعي حياتك على الصخرة المقدسة ..

أنظري لنصل السكين وهو يهبط فوق الوريد الثري
خائفة ؟.. أنا أحب هذا يا صغيرة ..
كذا أنت أقوى من الطبيعة ذاتها، لأنك تضخين الدماء في عروقي من جديد ..
أنتشي ..
أفيض ....
في لحظة كتلك أحبك حقًا ..
ضعي عنقك يا صغيرة ..
ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

وتنهض ماهي لتطوح بحذاءيها وتأتي بحركات مجنونة .. تميل بعنقها كأنها تنيمه على صخرة ... تطوح شعرها يمينًا ويسارًا ..

تسقط على الأرض في وضع استسلام كأنها تتأهب للذبح..
كاهنة يوتوبيا الشقراء.
ترتفع موسيقا الأورجازم ونغيب وسط النيران الخضر ...
"ضعي عنقك يا صغيرة ..
ضعي عنقك"

-5-

قطَــر كـــل روائـــح الكـــون .. قطَــر عبق السراخس في المســتنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطَر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطَر البخور الــذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطَر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطَر عبق كل غانيات باريس راقصـــات الكان كان .. قطَر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطَر الأحراش ذاتها .. قطَر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطَر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلــق ذقنـــي .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمــة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمــزق كـــل هذا بالشوكة ..ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتـــثاءب .. أضـــحك .. أبصـــق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس إصـــبعي فـــي حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي علـــى البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويســـكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكـــة .. أتقلـــب علَى البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعــيات يوتوبيا ...أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات علـــى جلـــدي .. أنتشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشـــي عاريًا في الردهة .. ألبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحـــم شـــعارات تقـــول: اقـــتلوا البيض .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم ..

ســـاعة واحـــدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

لكن الهاتف دق ..

كان هذا راسم يخبرني بأمور غريبة:

ــ"هل تعرف أن الطائرات معطلة ؟"

ــ"كلها ؟..لماذا ؟"

حكـــى لـــي قصـــة عجيـــبة عن مغامرة قام بها الأغيار من يومـــين.. لقد هاجموا قافلة هائلة تحمل البايرول عبر الصحراء .. انـــت تعرف أنهم يقومون بإنزاله من حاملات البايرول غربًا. لقد هوجمت القافلة وتم أسر سائقيها . وهو عمل لم يحدث من قبل ولم يتحســـب له أحد. النتيجة هي ارتباك عام. ظل السائقون في الأسر بضع ساعات ثم تم إطلاق سراحهم وقالوا إنهم لاقوا معاملة حسنة لم يفهم أحد سبب هذه المغامرة ولا جدواها.

فقـــط عـــندما تـــم مـــلء خزانات الطائرات وحاولت طائرة (مصـــطفى بيه) البونانزا الرياضية أن تحلق لم تستطع.. بالتدقيق فـــي الأمر اتضح أن ما في خزانها ليس وقودًا .. لا توجد قطرة

بايـــرول فـــيها. لقـــد قـــام أحدهم بملء خزانات البايرول بسائل المجاري !.

التحقيق قال إن هذا ما حدث عندما اختطف السائقون.. لقد تم إفراغ الخزانات بالكامل، ثم جاءت عربات كسح الترنشات اللعينة وقامت بملء الخزانات بمحتواها الكريه.

النتيجة هي أن محركات الطائرات تلفت كلها ..

محركات السيارات تلفت كلها. هذا ما اكتشفه من جربوا ملء خزانات سيارتهم بهذا البايرول المغشوش.

قلت لراسم ضاحكًا:

ـــــ"كـــنت ســـأندهش جدًا لو حلقت الطائرات بوقود من الـــ (...).."

وانفجرنا ضاحكين ... وتبادلنا ألف نكتة على هذه الفكرة.

قال راسم بعد ما استنفد قدرته على الضحك:

ـــــ"كل هذا جميل، لكن الوضع ليس مريحًا على الإطلاق .. إصـــلاح الطائرات والسيارات يستغرق وقتًا .. هل تعرف معنى هذا ؟.. معناه أننا معزولون فعلاً !"

معزولون فعلاً..

ظلت الكلمة تتردد في ذهني زمنًا ..

* * *

ازداد الأمـــر سوءًا عندما جلس معنا مراد على مائدة الغذاء. قال للارين:

ـــ"لا توجد مواصلات .. الغريب أن رائحة الغائط تتصاعد من كل المحركات. رجال المارينز قلقون وقد اتصلوا بوحدات الأسطول السادس .. لابد من وجود باب خلفي للفرار كما تعرفين، وهذا الباب أغلق بتعطل الطائرات .. وعدوهم بأن يرسلوا لنا بعض طائرات الهليوكوبتر بمجرد أن تقترب الحاملة (جيفرسون) من مياهنا الإقليمية .. هذا يستغرق يومين .. "

رائحة الغائط من كل المحركات ؟.. بدا لي هذا مضحكًا وإن لم أكلف نفسي بالضحك. سألته في عصبية:

ـــ"هل تتوقع أن يحدث شيء في يومين ؟... نحن هنا منذ دهور .. "

قال مراد:

ـــ"هناك كلام يتناثر هنا وهناك... ثمة شيء يتحرك في أرض الأغيار .. إنهم يتحركون ضدنا.. "

ـــ"وما الجديد ؟.. إنهم يفعلون هذا مرتين في العام ويخبو حماسهم بسرعة .. "

ـ"هذه المرة هم أعنف وأكثر تصميمًا وتنظيمًا .. يقولون إن أحدهم ساعد اثنين من يوتوبيا على النجاة من أرض الأغيار وجعلهما يعيشان تحت سقفه، لكنهما قتلاه وقطعا يده بعد ما اغتصبا أخته العذراء !.. وجدوا جثته في نفق يستخدم للتسلل إلى هنا. القصة تسللت إلى كل كوخ وكل زقاق هناك وأشعلت النفوس.. لقد تحملوا الكثير لكن يبدو أن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.. "

رحـــت آكـــل محـــاولاً ألا يبدو تعبير مريب على وجهي .. رسمت على وجهي تعبير رجل لم يقطع يد واحد من الأغيار.

قالت لارين في استخفاف:

ــ" إنهم قد سُلبوا كل شيء وظلوا صامتين فماذا يحدثه موت واحد من فارق ؟.. لا أظن الثورات تقوم لأسباب كهذه .. "

ــ"بل لا تقوم إلا لأسباب كهذه .. الصخرة تحملت الكثير من الضـــربات لكنها تفتتت عند الضربة الخمسين .. لم تكن الضربة الخمسون هي ما فعل ذلك لكن كل الضربات السابقة .. "

ــ"هذه قصص أطفال .."

ــ"وهل الجموع الغاضبة سوى أطفال ؟"

* * *

انتم بعتوا الأرض بفاسها ..بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر.
والريحه سبقت طلعة أنفاسه
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضـــــرب بـــــبوز الجـــزمة وبســـــن الكعـــــب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

كان اسمه جابر .. وقد كان أحمق لم يفهم قواعد أي شيء...
بشـــكل ما يستحق الفقراء كل ما هم فيه .. إنهم أقل ذكاء من آبائنا .. إنهم ضعيفو الإرادة خاملون .. تركوا نفسهم يُسرقون كل هـــذا الـــزمن من دون أن يحركوا إصبعًا .. هم بهذا انحدروا إلى درجـــة أقـــل من مرتبة الحيوان .. حتى النحل يلدغك لو حاولت ســـرقة عســـله، والدجاج ينقر أظفارك لو حاولت سرقة البيض .. بينما هم ظلوا خائفين صامتين ..
ما دامت الحياة ممكنة فلنبق صامتين ...
ما دام عشاء الليلة موجودًا فلنبق صامتين ..
لهـــذا لا احمل أي تعاطف نحوهم وقد زادتني هذه المغامرة مقـــتًا لهم .. حتى (جابر) هذا – يرحمه الله – كان مجرد متحذلق لا يكف عن الثرثرة ولا يفعل أي شيء ..
(مايـــك رودجـــرز) رجـــل المارينز جاء إلى دارنا ولم يكن متأهـــبًا للمزاح. عرفت أنه يقوم بجولة على كل القصور هنا مع رجـــال فـــي سيارة جيب عسكرية لم تتلفها مياه المجاري. قال إن علينا ألا نغادر بيوتنا إلا للضرورة .. قال إن علينا ألا نقلق . كل شيء تحت السيطرة ..
هـــذه العبارة وحدها (لا نقلق فكل شيء تحت السيطرة) تعني أن نقلق جدًا ..
سأله (مراد) عما هنالك .. فقال إن الفقراء ثائرون .. ثائرون ويتقدمون في جموع منظمة عبر الصحراء ....
ثم أضاف في لهجة ذات معنى:

ـ" لا أريد أن أثير ذعر أحد لكن ربما نطلب منكم الفرار في أية لحظة !"

ـ"ومتى ؟"

ـ"عندما تصلنا طائرات الهليوكوبتر التي طلبناها .."

قال له مراد في توتر وقد بدأت شفته السفلى ترتجف:

ـ"يجب أن تحموني .. سوف أدفع لك مكافأة خاصة .."

قال مايك بطريقته الأمريكية التي تستنسخ رعاة البقر:

ـ"أنا أتقاضى راتبي عن حماية يوتوبيا كلها، وهو كاف لي.. لا تقلق"

كدت أصيح في مراد: لماذا ترتجف ؟

لم لا تكون أكثر كبرياء ؟

لم لا تكون أكثر وقارًا ؟

ما أتوقعه من أبي – لو كان حقًا أبي – هو أن يغضب ولا يخاف .. يحتقر ولا يرتجف .. يغتاظ ولا يقلق.. يشتم ولا يلوم.. الرحيل ؟...

الشتات ؟

هذا لن يكون .. هذه أرضي وهذا عالمي .. ولدت هنا .. لو كان أبي قد سرق هذه الحقوق فهي قد صارت لي بحكم الوراثة، ولن أتخلى عنها من أجل أمثال (جابر) والمتسولين وعاهرات الأزقة ..

* * *

هرعت إلى البوابات ..

لارين تناديني ..
جرمينال تناديني ..
رودجرز يقول لي أن ابتعد ..
لكنـــي أشـــق طريقـــي بين الجند الذين اتخذوا أوضاع تأهب للقتال وأعدوا قنابل الغاز والبازوكا ..
لا أحـــد منهم يجسر على التعرض لي لأنهم يعرفون من أنا، لكنهم يحاولون منعي في غير حماس..
أرفع رأسي لأرمق خارج البوابات ..
فأشهق ..
رأيـــتهم هـــناك على مدى الأفق قادمين .. يحملون المشاعل ويصرخون غضبًا ..
بعد ربع ساعة سيكونون هنا ..
سيكونون بيننا ..
بيومـــي ومتولي وعبد الظاهر والسرجاني وصفية وعواطف وعـــزة ومينا وزينهم وشحاتة وعباس وصفوت وعبد الله ومرسي وعدنان وزلطة و ....
كلهم هنا ....
مايك يقول لي:
ـــــ"ابتعد الآن من هنا .. اتفقنا ؟.. إن بعض الطلقات سوف تطفـــئ حماسهم .. بعد أول خمسمائة قتيل سوف ينظرون للأمور بشكل مختلف..."

انتــزعت البندقــية الآلــية مــن يد جندي المارينز الواقف جــواري، وصوبتها نحو كتلة البشر القادمة في الأفق .. لم أفطن إلــى إننــي لم أجرب هذا من قبل، ولم تفتَ من شجاعتي الضربة القوية التي تلقيتها في ساعدي لدى الارتداد ..

هكذا رحت أطلق النار ..

أطلق النار ..

أطلق النار..

"*في لحظة كتلك أحبك حقا ..*

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

أطلق النار ...

أطلق النار..

" سففنى الحنضل واتعسنى

رأينا خلف خلاف..

احبسنى او اطلقنى وادهسنى

رأينا خلف خلاف"

تمت